الإيمان العلمي
تأصيلاً وتطبيقاً
(١)

المدخل عن نظرية المعرفة

القسم الأول

تأليف
أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
(محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل)
عفا الله عنه

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار ابن حزم للنشر والتوزيع

مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٢٥٦ الرياض ١١٤٩٦
هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧ جوال ٠٥٠٥٢١٢٢٩٣٥

مطابع الحميضي
تلفون: ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس: ٤٥٩٢٢١٧

ردمك: ٩٩٦٠-٧٩٥-١٦-٦

[فسبحان من لا يعرف الخلق قدره ... ومن هو فوقَ العرش فردٌ مُوحَّدُ
ومن لم تنازعه الخلائقُ مُلكَهُ ... وإنْ لم تُفَرِّدْهُ فمفرَدُ
مليكُ السموات الشِّدادِ وأرضِها ... وليس بشيء فوقنا يتأوَّدُ
وسبحان ربي خالقِ النور لم يلد ... ولم يكُ مولوداً بذلك أشهدُ
وسبحانه من كل إفك وباطل ... ولا والدٍ ذو العرش كيف يُولدُ
هو الله باري الخلق والخلقُ كلهم ... إماءٌ له طوعاً جميعاً وأعبُدُ
هو الصمد الحي الذي لم يكن له ... من الخلقِ كُفءٌ قد يضاهيه ضدَّدُ
وأنّى يكونُ الخلقُ كالخالق الذي ... يدومُ ويبقى والخليقةُ تنفَدُ
وليس لمخلوقٍ على الخلق جُدَّةٌ ... ومن ذا على مرِّ الحوادث يخلُدُ
فينقى ولا يبقى سوى القاهر الذي ... يُميتُ ويُحيي دائماً ليس يَمهَدُ
تُسبِّحُهُ الطيرُ الكوامنُ في الخفا ... وإذ هي في جوِّ السماء تصعَّدُ
ومنْ خوف ربي سبَّحَ الرعدُ فوقنا ... وسبَّحَهُ الأشجارُ والوحشُ أُبَّدُ
وسبَّحَهُ النينانُ والبحر زاخرٌ ... وما ضمَّ من شيء وما هو مُقلِدُ
ألا أيُّها القلبُ المقيمُ على الهوى ... إلى أيِّ هذا الدهر منك التصدد

قال **أبوعبدالرحمن** : التَّأود : الإعوجاج ، والجُدَّة الطريق ، وذلك مما زُعم أنه من شعر أمية بن أبي الصلت بديوانه ص٤٤-٤٥ بتحقيق سجيع جميل الجبيلي / دار صادر ببيروت/ الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م.]

بسم الله الرحمن الرحيم

* * *

[مبدأ الحرية - نقيضاً للعبودية - هو مبدأ شديد الالتصاق (من حيث دلالته) بمبدإ العقل ؛ ذلك أن الإنسان الحر هو الإنسان العاقل أساساً .

الخطاب والتأويل ص٢٠٤

للدكتور نصر حامد أبوزيد .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذه مواضعة جديدة خلاف اللغة والعُرف ، وهي مواضعة من كيس أبي زيد ، والمواضعة ـ بإرادتها عزفاً عاماً ، أو اصطلاحاً خاصاً ـ مرفوضةٌ لغةً إذا لم يكن شاهدها من اللغة نفسِها ؛ لأن اللغة للبيان والإيضاح والاطراد غير المتناقض ، لا للتضليل .. وما قاله أبوزيد تضليل متعمَّد ؛ لأن اللغة تأباه ، ولأن العرف العام نقيضه .. ثم هو تضليل فكري يعطي الحرية معنى معشوقاً (وهو غير معناها اللغوي والعرفي العام) ؛ ليأنس الناس لمعناها العرفي والاصطلاحي القبيح .]

ح دار ابن حزم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٤هـ .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .
الظاهري ، أبوعبدالرحمن ابن عقيل .
الإيمان العلمي ، المدخل عن نظرية المعرفة
القسم الأول – الرياض ١٤٢٤هـ
٦٦ص × ٢٠سم .
ردمك : ٦-٦١-٧٩٥-٩٩٦٠
١- المعرفة ـ فلسفة ٢- المعرفة ـ نظريات ٣- الإسلام والمعرفة
ديوي : ١٢١ ١٤٢٤/٩٢٨
رقم الإيداع : ١٤٢٤/٩٢٨
ردمك : ٦-٦١-٧٩٥-٩٩٦٠

* * *

[أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ البِـلادِ وبَدرهَا
وإنْ لامَنِي فِيكَ السُّهَا والفَراقِدُ
وَذاكَ لأَنَّ الفَضْــلَ عنْدكَ بَاهِرٌ
ولَيسَ لأَنَّ العَيشَ عنْدكَ بـاردُ
أبوالطيب المتنبي]

* * *

الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م

مكتبة ودار ابـن حزم للنشر والتوزيع
الرياض ـ شارع السويدي العام – هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧ – جوال ٠٥٣١٢٢٩٣٥

الإيمان العلمي :
تأصيلاً ، وتطبيقاً :
(١)

المدخل عن نظرية المعرفة

القسم الأول

* * *

[قال بعض الناس : أكثر ما يُفسد الدنيا نصف متكلم، ونصف متفقه ، ونصف متطبب ، ونصف نحوي .. هذا يُفسد الأديان ، وهذا يُفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يُفسد اللسان .

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية .
٥/١١٨-١١٩.]

* * *

ألّفه :
أبوعبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
(محمد بن عمر بن عبدالرحمن بن عبدالله العقيل)
- عفا الله عنهم -

مكتبة ودار ابن حزم - الرياض

[في تعريف أبوزيد للحرية المذكور ص١ من هذا الكتاب مراوغةٌ بغيضة ، واحتيالٌ على اللغة والاصطلاح معاً ؛ لأنه خدعهم بأن الحرية ـ تعريفاً ـ معطى عقلي ؛ وبالتالي يقبلون عفن الحرية العرفية والاصطلاحية على أنه قيمة كريمة .. أي لأنها معطى عقلي !! .

إن الحرية لغةً نقيض العبودية سواء أكانت العبودية حقاً أم باطلاً ، خيراً أم شراً ، جمالاً أم قبحاً !! .. والحرية في اصطلاح القانون الوضعي المسيطر على الدول والجماعات هي الاستجابة للحق الطبيعي الذي بُني عليه القانون الطبيعي .. أي حرية الشهوات والشبهات من غير أن تؤذي حرية الآخرين !!.. وفي هذا الاصطلاح إلغاءٌ لحرية العقل الذي خلقه الله للهداية ، وهي حرية نظرْ تنتهي بقطعيَّة أو رجحان أو احتمال ؛ فينتقل العقل من حرية النظر إلى مسؤولية الالتزام ، وبالحرية والالتزام كان الإيمان العلمي بالدين ضرورة عقلية ، وتحكيم شرع الله مسؤولية فكرية .. ومعنى المسؤولية ـ وهي مسؤولية علمية ـ أن يُكبح جِماح السلوك الحر .

أبوعبدالرحمن .]

فهرس تفصيلي :

اسم الموضوع	رقم الصفحة
من دالية أُميَّة بن أبي الصلت عن توحيد الله .	باطن الغلاف الأيمن
البسملة ، وكلام نصرِ أبوزيد عن الحرية ، ومناقشتي لبعض كلامه .	١
معلومات إيداع هذا الكتيِّب بمكتبة الملك فهد الوطنية، وبيتان لأبي الطَّيِّب المتنبي في المديح، وهُويَّة هذه الطبعة .	٢
هُويَّة الكتيِّب ، وكلمة عن الأثر السيء لنصف عالم .	٣
مناقشتي لبقية كلام أبوزيد عن الحرية .	٤
* * *	
الاستفتاح ، والمقدمة :	١١-٢٦
الاستفتاح بأدعية مأثورة .	١١-١٤
سِرُّ التراكم الفلسفي الحديث ، وبناء الفلسفة على التضليل، والكلام عن وجهين من أسوإ وجوه التضليل.	١٤
الوجه الأول : إفراغ اللفظ من دلالته وشحنه بمدلول آخر .	١٤
الوجه الثاني : تسويغ الحسبانية باليقينية تارة، والصدِّ عن اليقين بالحسبانية تارة .	١٤-١٥
صحة نِـيَّات ونوايا لغةً [حاشية] .	١٥
التبسُّطُ في شرح المنطق العلمي تجاه التضليل .	١٥-١٨

اسم الموضـــــوع	رقم الصفحة
الإغارةُ على أمتنا إغارةٌ فكرية طويلة الأمد منذ هزيمتها عسكرياً .	١٩
معنى الكواليس [حاشية] .	١٩
وسيلتان لأعداء أمتنا في تحطيم إيجابيات الفكر .	١٩
الوسيلة الأولى : التربية العلمانية للزعماء ، وما هو مستثنى من هذا الواقع المؤلم .	٢٣-١٩
معنى فارغة [حاشية] .	٢٢-٢١
الوسيلة الثانية : التسلط على عقول المثقفين بأفكارٍ من حِيَل التضليل .	٢٥-٢٣
هذا الكتيِّب صنو كتابي «العقل الفلسفي»، وبيان ابتدائه بتذليلٍ لنظرية المعرفة يصدر في عدة أجزاء ، والوعد بتقصِّيها في العقل الفلسفي ، ومنهجي في هذا الكتيِّب ، وكلمة شكر لمن ساعدوني في التصحيح والتحشية .	٢٦-٢٥
خاتمة الكتاب، وشعر أمية ابن أبي الصلت عن سفينة نوح عليه السلام .	٢٦
❊ ❊ ❊	
المدخل عن نظرية المعرفة (كلام عن البديهيات) :	٦٤-٢٧
نص للإمام ابن حزم رحمه الله عن ضرورة التفقه في الدين .	٢٧
صحة البديهيات لغةً [حاشية] .	٢٧
نص للإمام ابن حزم رحمه الله عن افتقار العلم إلى معلِّم.	٢٨
معنى الدَّرْس ، والقِنَّب [حاشية] .	٢٨

اسم الموضـــــوع	رقم الصفحة
مادة الفكر البشري، وقوانين العقل الفطرية .	٦٤-٢٩
أنواع مادة الفكر البشري، وبناء أقسام المعرفة على هذه الأنواع، وكلمة مجملة عن السفسطة حول قوانين الفكر.	٣٠-٢٩
لمحة عن الأفكار الفطرية .	٣١-٣٠
متى تُجعل النقطتـان الرأسيتـان بين المبتدإ والخبر [حاشية] .	٣١
المعرفة الحسية العقلية وأنواعها .	٣٢
المعرفة الحسية العقلية صورة في الذهن مطابقة للواقع .	٤١-٣٢
مذهب الحسبانيين النافين لذلك التطابق .	٣٥-٣٢
التعريف بجورج باركلي [حاشية] .	٣٣-٣٢
التعريف بأرنست ماخ [حاشية] .	٣٣
قيام مذهب أولئك الحسبانيين على حالات خداع الحواس غير السليمة ، أو الضعيف إدراكها .. وعلى المغالطة بوقائع حسية على أنها من خداع الحواس وهي وقائع خارجية صحيحة، ومناقشتي لهم .	٣٩-٣٤
التعريف بالفيزيولوجي موللر [حاشية] .	٣٤
التعريف بكبير الملحدين « فورباخ » [حاشية] .	٣٥
التعريف بالعالم الطبيعي « هيلمولتز » [حاشية] .	٣٥
إضافة الصفة إلى الموصوف جائزة لغة [حاشية] .	٣٦

اسم الموضـــــــوع	رقم الصفحة
التعريف بالهيروغلوفية [حاشية] .	٣٦
التعريف بطاغوت الشيوعية بليخانوف [حاشية] .	٣٦
صياغة البرهان من البديهيات بتسلسل رياضي، وتعريف البديهيات بأنها ما يحيل العقل إنكاره .	٤١-٤٢
مذهب الفيلسوف «كانط» عن بَعديَّتها، ومذهب الإمام ابن حزم عن قَبْلِيَّتها .	٤٢-٤٣
القول بِبَعْدِيَّة البديهيات لا يعني القول بعدم حُجِّيتها ، وأنها حكم عقلي .	٤٣
القول بحجيَّة البديهيات وإن كانت بعدية تَنَزُّلٌ مني في الاستدلال .	٤٤
إيرادات احتمالية قد تُورَد على كلام الإمام ابن حـزم عن قَبْلِيَّة البديهيات، ومناقشتها إجمالاً من جهة ضرورتها على فرض أنها بعدية .	٤٤-٤٧
التعريف بالدور [حاشية] .	٤٥-٤٦
التعريف بالمصادرة على المطلوب [حاشية] .	٤٦-٤٧
ردِّي على الإيرادات بثمانية أمور .	٤٧-٥٠
الضرورة الفطرية العقلية أم البراهين بطريقين (مباشر، وغير مباشر)، وبيان اشتقاق المعرفة الشرعية من المعرفة البشرية .	٥١-٥٢
ظاهرية ابن حزم نصيرة للعقل ، ولكنه أخطأ تطبيقاً لا تأصيلاً في صفات الله سبحانه خاصة ، وفي كل ما خالف فيه الظاهر .	٥٢

اسم الموضـــــــوع	رقم الصفحة
وزود نصوص شرعية في وجود الفطرة أو تفسير الفطرة أرجأتُ بحثها إلى الفراغ من تفسيري للآيات ١٧٢-١٧٤ من سورة الأعراف .	٥٢-٥٣
من أنواع الفطرة .	٥٣-٥٧
من قواعد وضع الشولة (،) وإلغائها [حاشية] .	٥٣-٥٤
ليس معنى الفطرة أن الإنسان يُولد عارفاً بالحق .	٥٣
نص الإمام ابن حزم عن التصرف لدى الطفل إلهاماً وغريزة ، ثم التمييز بالمعرفة العقلية .	٥٤
الامتراء والمراء صحيحتان لغةً [حاشية] .	٥٤
ثلاثة عناصر لحقيقة البديهيات .	٥٤-٥٦
من قواعد وضع النقطتين الرأسيتين [حاشية] .	٥٥
معنى العقلانية [حاشية] .	٥٦
لقاءات وفروق في مذاهب بعض العقلانيين [حاشية] .	٥٦-٥٧
ضبط تجربة [حاشية] .	٥٨
معنى صدوقية الله في كلام ديكارت، وذكر ما ترجم من كتبه.	٥٨
معاني مادة « بَدَهَ » لغةً .	٥٩
شرح بيت للطرمَّاح [حاشية] .	٥٩
أربعة أحكام للبديهيات عند العقلانيين .	٥٩
المستند في حجية البديهيات .	٦٠
لا تقوم المعرفة على مجرد الإدراك الحسي حتى يكون العقل حاضراً .	٦٠

اسم الموضـــــوع	رقم الصفحة
صحة واسطة لغةً [حاشية] .	٦٠
العموم والضرورة في العقل ظاهرتان علميتان .	٦٠
صحة رئيسي لغةً [حاشية] .	٦٠
مبدإ البديهيات الفطرية ، وعودتها إلى قانون الهُويَّة ، وهي ثلاثة قوانين عند أرسطو .	٦٠-٦١
وصل « إن » بـ « لا » وفصلهما [حاشية] .	٦٠
لمحة موجزة عن تاريخ الخروج على البديهيات ، وأهم الإيرادات التي أوردها التجريبيُّون الإنجليز على البديهيات.	٦١-٦٢
لا تلازم بين العلم بالوجـود وبين العلـم بالكيفيـة ، والعلم بالكيفية ليس هو المميِّز للحقيقة من الخرافة .	٦٢-٦٣
كيفية علمنا بما جهلنا كيفيته ، وبيان ثلاثة أسباب لتقرير هذه الكيفية للعلم .	٦٣-٦٤
تاريخ الفراغ من هذا الكتيِّب .	٦٤
نصوص لليبنز عن المعرفة العقلية الفطرية .	٦٥-٦٦
من لامية أمية بن أبي الصلت في الاستدلال على وحدانية الله بمخلوقاته .	باطن الغلاف الأيسر

الاستفتاح ، والمقدمة :

إنَّ الحمد لله .. نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق .. اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمتُ ؛ فاغفر لي ما قدَّمت ، وما أخَّرت ، وما أسررت ، وما أعلنت .. أنت المقدِّم ، وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت .. أنت إلهي لا إله إلا أنت .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.. له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن .. لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.. اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم .. اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخرت،

وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني .. أنت المقدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إله إلا أنت .. اللهم أعِنِّي على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك .. اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أُردَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر .. اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار .. اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق : أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفَّني ما علمتَ الوفاة خيراً لي .. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت .. وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك (في غير ضرَّاء مضرِّة ، ولا فتنة مضلة) .. اللهم زيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلَّم تسليماً كثيراً.. اللهم صلِّ على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيــم ؛ إنك حميدٌ مجيد .. اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..

إنك حميد مجيد .. اللهم صل على محمد ، وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيــم ؛ إنك حميد مجيد ؛ فلقد علَّمنا، بأبي هو وأمي، أن نستأنف حياتنا اليومية بعد قيامنا من النوم بتلاوة ما أنزله
الله عليه من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ
أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا
تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي
وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ [سورة آل عمران / ١٩٠-٢٠٠] .. فمتى تلا ذلك غُفر له ؛ فإن دعا استُجيب له ، فإن قام وتوضأ ، ثم صلى : قُبلت صلاته (كما في صحيح البخاري).. والحمد لله بدءاً وعوداً، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

أما بعد : فإن الفلسفة الحديثة لا تكاد تُحصى كثرة بمذاهبها، ومصطلحاتها ، وما بينها من فروق دقيقة .. وكاد يضاهيها كثْرةً الكتب الفكرية للحواة في شرق بلاد المسلمين وغربها .. وجمهرتها فرارٌ من ديننا عقيدة وسلوكاً : إما بمواجهة علنية ، وإما بتضليل .. ومن أسوإ وجوه التضليل أمران شِرِّيران :

أولهما : إفراغ اللفظ من معناه اللغوي والاصطلاحي، ثم شحنه بمفهوم ليس منه ، وهو مفهوم معقول وخيِّر وجميل ؛ ليأنس الناس للفظ بمفهومه المعادي للدين والعقل؛ فيتقبلوه على غفلة عن التناقض بين المواضعة الفردية التضليلية والعرف العام .

وثانيهما : المراوغة الذكية في فرض حسبانية ويقينية معاً ـ بجعل الأولى مُمَوَّهة بالثانية ـ في التعامل مع العقل ومنجزات العلم المادي القطعية ؛ فعند تأويل الدين بالأهواء يكون الغناء الرومانسي بالعقل ومنجزات العلم المادي القطعية؛ وعند تعذُّرِ التأويل يكون

حشد المغالطات على التوثيق التاريخي والدلالي ، وتكون الحسبانية حول العقل ؛ لأنه محروم اليقين أو الرجحان فيما هو غائب عن الحس غير خاضع للتجربة .. وتكون الحسبانية في العلم المادي بالزَّعْمِ أنه ظواهر وتغيُّر وصيرورة مستمرة !!.. ولا سبيل في كل ما مضى إلا مخاطبة العقل ؛ لأنه المرجع في الحكم والفهم ، ولكن المخاطبة بِحِيَلٍ شرسة من التضليل يبدعها بمغالطات الفكر المتَّبع لهواه ـ من تجميل للمغالطات ، وإجفال بها ـ : إنما هي حيل محكمة يَندُّ إدراكها عمن كانت ثقافته خطَّافية غير مؤصَّلة، ولماحيته كليلة .

وتغيير أفكار الناس ، ومشاعرهم ، وسلوكهم ، ونيَّاتهم[1] يكون بوسائل بيانية : من الإشارة ، وشاهد الحال، والإيحاء من أجناس الأدب والفنون المعبِّرة .. إلا أن المرجع يكون إلى اللغة الفكرية المباشرة، وههنا لابد من اللماحية واليقظة لمعاني اللغة المشتركة ، ولوضعيَّة العقل الإنساني المشترك؛ بإرجاعه إلى بديهياته الفطرية والمكتسبة .. وخير من يتقن ذلك ذوو الأديان الصحيحة قبل أن يعتورها التبديل والتحريف والدس ؛ ولهذا فالمسلم المفكر الملتزم لا مجال

(١) قال **أبوعبدالرحمن** : اخترتُ أحد تعبيرين صحيحين ، وآثرت النيات على النوايا؛ لتوقُّف بعضهم في صحتها لغوياً، وقد بيَّنتُ في مباحثي اللغوية أنها صحيحة ؛ لأنها جمع نَوِيَّة مثل طوايا جمع طَوِيَّة ، وللنوية والنية دلالتهما اللغوية من جهة الصيغة ؛ فالنوية أدل على الاسمية ، والنية تضيف دلالة مباشرة الحدث ، ولهذا بيانه في غير هذا الموضع .

للحسبانية ولا العناد في تصوراته المؤسسة على البرهان العلمي ، كما أنه لا مجال للقطعية المؤسسة على غير برهان.. بل عقيدة المسلم أن عقله مخلوق من مخلوقات الله، كما أن عقله هو وسيلته الوحيدة في المعرفة بما لديه من خبرة حسية ومبادئ فطرية وخبرة بشرية عامة تأدَّت إليه بالنقل ؛ فصدَّق بها يقيناً أو رجحاناً بموجب طرق التوثيق التاريخي التي ينظمها العقل أيضاً .. ومنطق المسلم أنه لا يأخذ بالمرجوح في نصاب العقل ويلغي اليقين أو الراجح ؛ لأن ذلك انحراف عن إيجابيات الفكر إلى العبث أو الهوى والتحكُّم والعصبية .. والمسلم يُنظِّم معادلة بين كون العقل مخلوقاً، وكونه المصدر النهائي الوحيد لتصحيح المعرفة ؛ فمن المنطق الأول لا يبتغي كيفيات الأمور التي لم تصل إلى قبضة الحس البشري ؛ لأن الكيفية لا تُعرف إلا بشاهد من نوافذ الحس على سبيل الإحساس المباشر أو الوصف أو التشبيه بمحسوس آخر .. وفي الوقت نفسه يعلم أن الصفات من لوازم الوجود ؛ إذ لا يتصور العقل وجوداً مجرداً.. كما أن ما تعذر الإحساس بكيفيته لا يكون وهماً ولا حقيقة ، وإنما يكون : إما واجباً متعيناً (أي حقيقة خارجية) يُعلم وجوده بضرورة العقل وآثاره الحسية ، ولا تُعرف كيفيته إلا بخبر من يوجب العقل تصديقه ، أو بوصف مقارب لا مطابق من واقع آثاره المشهودة.. أما العظمة واللطف والقدرة فلا تصدر إلا عن وصفٍ مطابق هو الكمال المطلق .

وكل الحقائق التي كانت في يوم ما مغيبة عن الحس البشري إنما توصل إليها الحس بريادة الإيجابية العقلية ؛ وما توصَّل إليه الحس مصادفةً فلا يمكن أن يوجد في العقل إحالته .. وإما أن يكون المتعذرُ كيفيته مستحيلاً ممتنعاً لا يمكن أن يكون في الحس، والعلم الحديث إنما يحيل في كثير من مجالاته بتصوراتٍ عقلية مسبقة .. وإما ممكناً محتملِ الطرفين؛ لتخلف المقتضي، والمانع .

والفرد المسلم منطقي في تعامله الفكري وَفْق إيجابيات العقل وموانعه واحتمالاته، ووفق وسيلة المسلم ذاته، ووسيلة إخوانه في الملة من المفكرين في المعرفة ، ووسيلة أبناء جنسه من البشرية وفق عقل مشترك تركت الملة أمره للعقل الإنساني .. وكلما استجدت وسائل جديدة للمعرفة ، أو خبرات حسيَّة تُعيْنُ العقل في تصوره : فإنه يُحوِّر في أحكامه وقضاياه تبعاً للبرهان من غير أن يضيره ذلك ؛ لأن معرفته في الأمس كانت بالنسبة إلى وسيلته في المعرفة بالأمس، كما أن معرفته اليوم كانت بالنسبة إلى وسيلته هذا اليوم .. ومبدأ النسبية من الثوابت الفكرية التي لم تتخلخل على مدار التاريخ .

ومن المنطلق الثاني - وهو رفض القطعية من غير برهان - يرفضُ المسلم أي تصوُّرٍ لا يقر العقل وجوده أو كيفيته ؛ ومن هذه المعادلة يرفض المسلم أن يكون الحس أو التجربة (الحس المكرر) معياراً لوجود الحقيقة ، ويلحُّ على أن يكون معياراً لمعرفة كيفيتها ؛

فصفات الله وأخباره حقيقة وجودية ثابتة .. آمن بها العقل بضرورات فكرية ، وبآثار حسية صادرة عن هذه الحقيقة الوجودية ودالَّة عليها كبراهين النبوة المستمرة إلى يوم القيامة ، وكبراهين الخلق والحكمة المعروفة بدليل الغائية .. إنّ من عناصر هوية المسلم إيجابيته الفكرية ؛ فلا يلغي العقل وهو وسيلته الوحيدة لتصحيح معرفته ، ولا يطلب من العقل ما ليس فيه ؛ لأنه حادث مخلوق .

ومنطق المسلم بناءً على هذا العنصر (عنصر الإيجابية الفكرية) : أنه يستحث الحس البشري في تعميق معرفته في كل ما هو واقع تحت حسه ؛ بدليل استحثاث الله عباده على التفكُّر والاعتبار واستثمار السمع والبصر والفؤاد .. ولو كان هذا العنصر من الهوية الإسلامية سلوكاً تاريخياً لكان المسلمون اليوم أولى الناس باستكشاف بعض قوانين الكون ودقائق العلم .. أما الحقائق التي آمن العقل بوجودها مع الإيمان بلازِمِ الصفة - مع أنه لا يملك بحسه معرفة كيفيتها - فلا يمكن أن يُخلخِل إيمانَه بها الجزمُ بعجز الحس عنها كحقيقة الجن ؛ لأن في يقين المسلم أن لله غيباً لا يُطلع عليه أحداً ، وأن له غيباً لا يطلع عليه بعض خلقه .. ولأن في حقائق العلم ما بدأتْ معرفتُه بمعرفة الوجود بالأثر ، والاستدلال على بعض أحواله وصفاً لا تكييفاً من خلال آثاره .

والإغارةُ على شرقنا الإسلامي إغارةٌ فكريَّةٌ في الدرجة الأولى منذ حَلَّ نظام الخلافة الإسلامية ، وانتُهبت تركتها .. كما أن للصهيونية والصليبية تخطيطاً منظماً مدروساً لإبقاء شرقنا الإسلامي تحت الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي .. لا يمكن أن ينكر ذلك إلا من صمَّم بإرادة سلوكية حرة - لا بضرورة فكر - على أن يعزل نفسه عما حوله ، وأهم ثمار هذا التخطيط جاء من قبل تحطيم إيجابية الفكر ، وقد تجلَّى ذلك في وسيلتين :

الوسيلة الأولى : إفساد القيادات والزعامات ، وتربيتها تربية علمانية.. وعداء أغلب الزعامات للإسلام في بلادنا العربية والإسلامية حقيقة حسية مشهودة .. كلما استُحدِثَ زعيم شغل الفراغ بالشعارات الكاذبة، مع ترديد العلمانية وترسيتها في حياة الناس وفي فكرهم ؛ فإذا برم الضمير بتلك الشعارات ، وسئم الاعتداء على مقدساته صُفِّيت تلك الزعامة بأي تدبير من وراء الكواليس[2] ، وأُحِلَّ محلها زعامةٌ جديدةٌ لا سابقة لها ولا خطر إلا أنها رُبِّيت تربية معادية للأمة دينياً وعسكرياً واقتصادياً .. وهي تربية

(٢) **الكواليس** جمع مفرده كوليس، وهو تعريب للكلمة الفرنسية (coulisse)؛ ولها عدة معان أشهرها الدلالة على ما يُحاك في الخفاء ، والأصل في هذا المعنى أن الكوليس قسم من المسرح يقع على الجانبين في المنطقة الخلفية لخشبة المسرح وراء الديكور ، ولا يراه النَّظَّارة [د. البقاعي] .

من وراء الكواليس أيضاً : تعيد حمى الشعارات السابقة ، وتمتص غضب الجماهير بمراوغات جديدة .. وربما افتعلت لها المؤسسات الأجنبية نصراً عسكرياً مؤقتاً ومموهاً ضماناً لبقائها .. وما بُليت الأمة في هذه العصور إلا بعمالة القيادات وخيانتها.

ويَستثني واقعُ التاريخ وضعاً حكومياً واحداً في جزيرة العرب - وهو الحكومة السعودية - ؛ فليس في أي بلد عربي قيادة تساوي أو تقارب الواقع التاريخي لهذه الحكومة، بل كانت أعرق الحكومات على الإطلاق ، وقد وُجدت قبل انحلال الخلافة الإسلامية في تركيا بما يزيد على قرن ونصف قبل أن يتفق الذئاب من الدول العظمى على التلاعب بكراسي الحكم والاستحواذ على ربائط تُربِّيها يد الأجنبي .. كانت هذه الحكومة من قرية من القرى الصغرى في نجد في مجتمع أُميٍّ عامي لم تمتد أساليب العمالة الأجنبية إلى فنائه ، ولم تمخضه حركات الغارة الفكرية ؛ لأنها لم توجد في الساحة بعد.. قامت هذه الحكومة والخلافة الإسلامية قائمة في تركيا ليس للأمم الكافرة أي سلطان على شرقنا، ولو وجد لها سلطان لكانت الحكومة في الجزيرة آخر من يفكر في مداهنته ؛ لأن النفوس مجبولةٌ جِبلَّة فطرية وراثية على كراهة الأجنبي .. ولا سيما إن كان عدواً لله.. لم يصحب قيام هذه الدولة في مجتمع فقير أُمـيٍّ تأييدٌ أجنبي ، ولا يد أجنبية ، ولا تمثيل بين عواصم أمريكة وبريطانية وروسية وفرنسية ؛

لأنه لم يقم لهذه الدول الكافرة سلطان يومئذ ، ولأن خلافة تركيا المسلمة في نحورهم على الرغم من سلبيَّاتهم الخانقة لأبناء ملتهم من العرب الذين لم تُكدِّر سلفيَّتهم البدعةُ والدروشة .. إنها حكومة قامت في جوِّها التاريخي الطبيعي داعية إلى الإسلام وتنقية المجتمع من شوائب البدعة والوثنية التي تراكمت مع أحقاب الزمن ، وليس لهذه الحكومة أي موجِّه فكري وافد؛ لأنه ليس في أرفف القوم وفارغاتهم(٣) غير القرآن الكريم، وكتب الفقه، والحديث، والتوحيد،

(٣) قال **أبوعبدالرحمن** : خُلُوُّ شيءٍ من شيء فراغ ، وقد تفرَّع هذا المعنى بالمجاز؛ فمخرج الماء من الدلو بين العراقي فَرْغٌ؛ لأنه ناحية الإفراغ من الدلو .. أي ناحية صب الماء .. ووصفوا الضربة إذا اتَّسَعَتْ وكانت جائفة من فعل الضرب فرِغ؛ ؛ فقالوا : فَرَغَت الضربة ؛ لأنها أحدثت في الجسم فراغاً ، أو على التشبيه بفرِغ الدلو .. وسموا الطريق الواسع فريغاً ؛ لأنه كالإناء سيحوي من يمشي فيه .. وسموا المزادة الواسعة فريغة ، وهكذا الحوض الواسع من أدم يسمونه فِراغاً ، ثم توسعوا به لكل إناء سواء أكان قدحاً ضخماً أم غيره ؛ لأنه سيحوي ما يُلقى فيه ؛ إذْ هو مُعَدٌّ لشحن الفراغ .. والأودية فِراغ ، والفرغان الإناء الواسع .

قال **أبوعبدالرحمن** : الفارغة عند عامة أهل نجد حفرة في الجدار لا تشقُّه ، بل هي كالدرج مثلثة الشكل ؛ فإن شقَّته كانت لَهْجاً ، والفارغة أكبر من اللَهْج بضعفين تقريباً ؛ فهي ثلاثة أمثاله .. توضع في السارية وفي الجدار ، وتضع فيها النساء أدوات الزينة .. وتُوضع في مجلس الرجال (القهوة) ، ويُوضع فيها الكتاب ، والمرُّ المنقَّع بالماء للاستشفـاء وما أشبه ذلك من

والآلة بأقلام كبار السلف .. لا يعرفون ولا يحسنون أصلاً غير ذلك، وظلت رقعة هذه الحكومة بين مدٍّ وجزرٍ تمتد بدافع الحماس للعقيدة كما في عهد عبدالعزيز الأول وابنه سعود ؛ وتنكمش بتسلط الخلافة الإسلامية في تركيا بدافع الغيرة كما في عهد الإمام عبدالله .. أو بعامل الخلاف والتشاحن بين الأسرة ذاتها كما في عهد أبناء الإمام فيصل بن تركي رحمهم الله .. وقد عادت جميع الرقعة التاريخية في عهد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن ، وانتظمت القيادة بالدستور نفسه .. ومنذ ذلك التاريخ لم نجد وجهاً نشتبه فيه، والتعاقب على ولاية الأمر لم يكن من اللون الذي نرى فيه تصفية زعيم، واستحياء قزم ، وإنما هو نظام تاريخي اختاره ولاة الأمر أنفسهم على نظام عريق سائد منذ قامت حكومتهم ، وظل يكتسب شرعيته في كل مرحلة ببيعة المسلمين وتنظيم علمائهم .. وإلى الآن - والله المرجو أن يعصم مستقبلنا - لم يُمْلَ على شعبنا أي إيديولوجية وافدة ، ولم يحصل اعتداء على حرمة الدين وحريته ، واستمرت البيعة لأجله منذ عهد محمد بن سعود ؛ فالكلمة للإفتاء والقضاء

حوائج الرجال .. وهذه التسمية (الفارغة) إن لم ترد عن العرب فهي صحيحة لغة بالمجاز ؛ لأنها اتساعُ ناحيةٍ في الجدار بمقدار حوائج معدة لمثلها؛ فهي فراغ في الجدار ؛ فذلك على منهج العرب في تسمياتهم وأوصافهم المجازية التي مضى ذكرها .

والدوائر الشرعية العليا ، ولا تزال الدولة (ولن تزال إن شاء الله) جهة تنفيذ لدين الأمة وعقيدتها .

هذا واقع تاريخ لم أبتدعه ، وإنما نبَّهتُ عليه ؛ لأنه برهان حاسم على أنَّ نظامنا منَّا ، وإنما يُخشى علينا الاستسلام للغارة الفكرية التي سأشرحها في الوسيلة الثانية من وسائل التدمير الأجنبي .. لقد رأينا خلال التهافت على الكراسي في البلاد الأخرى أكثر من سحنة، وأكثر من وجه ، وأكثر من أسلوب للخداع .. ولكن الذي بقي ولم يتغير هو العلمانية في فصل الدين عن الدولة ، وتربية الناشئة على الغربة عن دينها ، وبقاء الأمة خلال كل زعامة تطرأ عاجزة عن صنع إبرة !..

والوسيلة الثانية : التسلُّط على عقول المثقفين بأفكار من حيل ثقافية تؤمِّم كل إيجابية فكرية .. يظهر ذلك بربط مداخل جميع العلوم بمناهج فلسفية غربية معاصرة حطَّمت كل معايير الفكر الصحيحة الثابتة ، وهي مناهج ومذاهب متناقضة ما بين حسبانية، واسمية، ووضعية، ووجودية.. وقمم هذه الفلسفة المعاصرة ملاحدة متستِّرون على يهوديتهم، ولا ينكر البروتوكولات الصهيونية إلا مغبون العقل .. ويظهر ذلك ظهوراً أدقَّ ذكاء ، وأعوص تعقيداً في إيديولوجية الأدب الحديث التي يتهافت عليها - بغريزة فطرية - معظم أجيال المثقفين .. وهذا الأدب الحديث بإيديولوجيته أصبح

بريداً من بُرْد الانسلاخ الفكري تحددت هويته من أحمق ظاهرات الجنون البشري : من إيغال في الحسبانية والهيبية ، وتحطيم للثوابت ، وفرض للمحال ، وتخدير للعقل بجنون الخيال، واستباحة لكل محرم في وسيلة إبداع أدب!!. وأنموذج ذلك ـ وهو من نماذج كثيرة ـ «سباحة في بركة الشيطان» للمسكينة غادة السمان ؛ فالكتاب صورة لهيبية الأدب الحديث .. وتسلَّم قيادة هذا الأدب عملاء الصهيونية والصليبية والعلمانية من جماعة حوار وشعر ومواقف!! .. وكل هذه الوجوه الكالحة إما نصرانية، وإما طائفية ، وإما مذهبية ، وإما غير ملتزمة يُصَرِّح أحدُ رُوَّادها بأنه يروث على قيم الشرق .. والمؤسسات الأجنبية تبذل في صنع الزعامات الأدبية والترويج لها ما لا تبذله في صنع الزعامات السياسية ! .. والمثقف المسلم مطالبٌ باحتضان الأدب الحديث من واقع هُوِيَّته المبنية على إيجابية الفكر ؛ لينقِّيَه من الهيبية والحسبانية والقبح ؛ ويقيمه على أمتن مناهج الفكر وأمتع قيم الفن من واقع الفلسفة الجمالية .. كان الأدب الحديث أولاً مجوناً ، وكان باستطاعة فرد واحد كنزار قباني أن يربي أجيالاً كثيرة على قلَّة الحياء .. أما اليوم فقد أصبح الأدب الحديث إيديولوجية فكرية موجهة ضد شخصيتنا وحريتنا ومأثورنا ؛ فاستطاع فرد واحد كأدونيس أن يصيب فكرنا العربي بالخبال!! .. وليست

إيديولوجية أدونيس وخالدة، والخال ، وغالي شكري بأقل خطراً من الإيديولوجية الفكرية التي جعلها ميشال عفلق النصراني واقعاً حيّاً في أعظم قلعة من قلاع المسلمين ! .

قال **أبوعبدالرحمن** : وهذا الكتاب (الإيمان العلمي) صنو كتابي « العقل الفلسفي »، وقد قدَّمتُ له بتذليلٍ لنظرية المعرفة تصدر في عدة أجزاء إن شاء الله، ولم آلُ جهداً من التبسيط؛ لأنها المدخل للإيمان العلمي على أن لها إفاضة فلسفية حفيلة موثَّقة بكتابي العقل الفلسفي .. وهذا الكتيِّب على منهج الكتيِّبات التي أُصدِرُها عن دار ابن حزم من ناحية شحن الفراغ بإفادات جانبية كما بيَّنتُ ذلك كثيراً في مقدمات بعض المؤلفات .. ومع تصحيحي لتجارب الطبع فقد ساعدني في التصحيح مشايخ فضلاء هم : الدكتور محمد أديب جمران ، والشيخ أحمد يوسف القادري ، والشيخ علي إدريس ؛ فوضعوا بعض الحواشي ، وأبدوا لي بعض الملاحظات ؛ فأفدتُ منها جزاهم الله خيراً ، وبقيت على ما أعتقد صحة اجتهادي فيه ، وبيَّنتُ ذلك في الحاشية .. ومن أولئك الفضلاء أستاذي الطلعة الدكتور محمد خير البقاعي ؛ فقد جمَّل الكتيِّبَ ببعض التحشيات .. وكل تحشية نسبتها إلى صاحبها بذكر اسمه آخر التعليقة بين معقوفتين ، وما عدا ذلك فهو تحشيتي سواء أصدَّرْتُهُ بـ « قال **أبوعبدالرحمن** » أم لم أصدِّره ..

والحمد لله بدءاً وعوداً ، وصلـى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه لكم

أبوعبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

الرياض/ ضحى يوم الخميس الموافق ٢٦/١٢/١٤٢٣هـ ثم تمَّتْ المعاودة مغرب الليلة التي صبيحتها يوم الأربعاء الموافق ٢٣/١/١٤٢٤هـ.

* * *

[عرفتُ أنْ لن يفوت اللهَ ذو قدم ... وأنَّه من أميرِ السوءِ ينتقمُ
المُسبِّحُ الخُشْبَ فوق الماء سخَّرها ... خلالَ جريَتها كأنها عُومُ
تجري سفينةُ نوحٍ في جوانبه ... بكلِّ موجٍ من الأمواج تقتحمُ
نودي قُمْ واركبنَّ بأهلكَ إن ... (م) الله موفٍ لكلِّ الناس ما زعموا
مشحُونةً ودخانُ الموجِ يرفعها ... ملأى وقد صُرِّعَتْ من حولها الأممُ
حتى تسوَّتْ على الجوديِّ راسيةً ... بكلِّ ما استوعبتْ كأنها أُطُمُ

قال **أبوعبدالرحمن** : الأُطُم الحصن المبني من الحجارة، والقصيدة مما نسب لأُميَّة بن أبي الصلت بديوانه ص١١٧ .]

المدخل عن نظرية المعرفة :

(كلام عن البديهيات)[١]

* * *

[قال الإمام أبومُحمد ابن حزم رحمه الله تعالى : « وأما معرفة قراءة الحديث ففرضٌ على الكفاية بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة/ ١٢٢] .. ولا سبيل إلى التفقه في الدين إلاَّ بمعرفة أحكام القرآن، وحديث النبي ﷺ ـ صحيحه من سقيمه، وناسخه من منسوخه ، وما أُجمع عليه مما اختلف فيه ـ؛ فهذا أفضل ما استعمل المرء فيه نفسه، وأعظم ما يحاول لأجره، وامِّحاءٍ لذنوبه.. وقد قسَّم النبي ﷺ هذا الباب أقساماً كثيرة كافية » .. ثم ساق رحمه الله بإسناده حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه من صحيح البخاري : عن النبي ﷺ أنه قال : **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث كثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.. وكان منها أجادب أمسكت الماء؛ فنفع الله تعالى به الناس ؛ فشربو ، وسقوا ، وزرعوا .. وأصابت منها طائفة أخرى .. إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »** .

التلخيص لوجوه التخليص

ضمن رسائل ابن حزم ٤/ ١٦٤-١٦٥ .]

(١) الأصل في « الفعيلة » ـ عند النسب ـ الفعيلي ، وينسب إلى « الفَعَلِيِّ » لمسوِّغ ، وذلك هو الاستثناء حسب استقراء مفردات اللغة ، وليس حسب ما قرره الإمام ابن مالك رحمه الله .

[قال الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله عن بعض براهينه العلمية : «البلاد التي لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادي التي بين الحواضر : لا سبيل إلى أن يوجد فيها شيءٌ من العلوم التي لم يعلموها مذ وُجد العالم إلى يومنا هذا، وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدِّرْس[2] وآلاته .. كل ذلك والدَّرْو والطحن وعمل الكتان والقطن والقِنَّب[3] والحرير وغزل ذلك كله .. لا سبيل إلى أن يعرف أحدٌ شيئاً من ذلك كله إلا حتى يُوقف عليه فيقبله ، ويترفَّق به، ويُفتِّق بذهنه في ذلك؛ بما جُعل في طبعه من قبوله؛ فصح ضرورةً ـ صحة حِسِّيَّة مشاهدة ـ : أنه لابد في اللغات من معلم، ولابد في الصناعات من معلم ليس من المعلمين الذين في طبعهم تعلُّمُ ذلك دون تعليم [يعني ما أسلفه مما يفضي به الطبع والغريزة كالرضاع والجماع] ؛ إذ لو كان ابتداء ذلك موجوداً في الطبيعة لوُجِد ذلك في كل عصر وفي كل مكان؛ لأن الطبيعة واحدة في جميع النوع » .

التوقيف على شارع النجاة

ضمن رسائل ابن حزم ٣/ ١٣٦ .]

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الدِّرس بالراء المهملة هو الدوس بالواو .. قال في تاج العروس ٨/ ٢٨٢ـ تحقيق علي شيري / دار الفكر / طبعة عام ١٤١٤هـ: «درس الطعام داسه.. يمانية، والدِّراس الدياس بلغة أهل الشام » .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : القِنَّب ـ بكسر القاف وضمها ، وتشديد النون بالفتح ـ الغليظ من الكتان الذي تُتَّخذ منه الحبال ؛ وللاستزادة يراجع تاج العروس ٢/ ٣٤٢ .

الفكرُ مادةٌ حيويةٌ خصبة ، ومادةُ الفكر هي المادة التي وصلت إليه بالحس الظاهر كحقيقة المرئي ، أو الباطن كحقيقة الحزن ؛ فالمادة الفكرية هي المادة الحسية بلا نقص ولا زيادة، ولكن معرفة الفكر من هذه المادة أخصب وأوسع ؛ لأن الفكر بملكة الخيال يركِّب من مادة الحس عوالم لا وجود لها في الواقع بهذا التركيب ـ وإن كانت عناصر التركيب جزئيات حسية ـ ، فلا يمكن أن يقيم العقل تصوراً بغير جزئيات حسية.

والفكر بملَكةِ قوانينه الفطرية المطَّردة مع ثوابت الحس يصل إلى معرفة ما لم يتم الإحساس به بعد كمعرفته بوجود الجن بناء على براهين مركَّبة من وقائع حسية ، وقد دلَّت شواهد الحس على أن ما دلَّت عليه هذه البراهين فهو ضروري واقعي .. والفكر بمختلف ملكاته يتسع لشتى الاحتمالات والتصورات والفرضيات ؛ بناء على عمله الخصيب في الوقائع الحسية .. ولكنَّ هذه الافتراضات والاحتمالات والتصورات قابلة للتطور والتغير ، إلا أنها لا تسمى حقائق حتى تستقر وتثبت ، وهي لا تستقر ولا تثبت إلا إذا أوجب حكمها أحد قوانين الفكر الثلاثة الثابتة وهي :

١ - الهُوِيَّة : كل ما كان هو فهـو هو .. مثال ذلـك : طرفا الخط المستقيم لا يلتقيان .. فهذه قضية فكرية حسية ثابتة؛ لأنه لو التقى طرفا الخط لأصبح الخطُّ غَيْرَ مستقيم؛ إذن الحكم باقٍ ما بقيت الهوية .

٢- العِلِّيَّة والسَّبَبِيَّة، وهي ربط كل حادث بمحدث؛ فكل وقائع الحس مطردة مع هذا القانون .

٣- الثالث المرفوع ، وهو قضايا مطردة في مشاهدة الحس لم تنخرم بأي مثال منذ وجد العقل البشري، كنفي اجتماع شيئين معاً ، أو ارتفاعهما معاً إلا بأحد ثمانية شروط منها : اختلاف الزمان والمكان.. إلخ ، وبشرط أن يكون الاجتماع أو الارتفاع على حقيقة الكلام دون مجازه كقولنا : محال أن يكون زيد موجوداً وغير موجود في داره الخميس الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٣/ ١٢/ ١٤٠١هـ.. وكل قضية فكرية ثابتة في مختلف العلوم والنظريات إنما هي ثابتة بهذه القوانين .

وقد حاولت بعض المدارس الفلسفية الصهيونية الموجَّهة اللعب بهذه المبادئ التي تقوم عليها جميع الحقائق .. بيد أن قوانين العلم التي بُنيت عليها اكتشافات العلم الحديث رفضت هذه السفسطات ، فلم يهتد أي مخترع إلا في ظل ثوابت العقل المسبقة .

قال **أبوعبدالرحمن** : الموجود الذي تصل إليه معرفتي : قد يكون حسيّاً عرفته بحسي مباشرة ، أو بالنقل اللغوي أو الإشاري عن ممارسة الآخرين.. وهذا يطلق عليه (مادي) .. أي له كم أو كيف بشتى المقادير والأشكال، ومعرفتي لهذا اللون معرفة (حسية عقلية).. وقد يكون الموجود الذي تصل إليه معرفتي ـ ولا أقول إنه مادي ، أو

غير مادي ـ موجوداً لم أعرفه بحسي ، ولم أرَ الناس مارسوه ؛ فمعرفتي به ليست معرفة (حسية عقلية) بل معرفة (عقلية خالصة) ؛ لأنني أعرف وجوده بلزوم عقلي ، أو بإحساس لأثره ، ولا أُكيِّفُه بمقدار أو لون أو شكل ، وذلك هو الأفكار الفطرية كالمعرفة عن طريق السببية .. ويؤيد صدق هذه المعرفة أن كثيراً من معارفي الحسية العقلية كان معرفة عقلية خالصة قبل أن أُحسَّ به ؛ فلما أحسست به صار معرفة حسية .

والذي يسقط المعرفة العقلية الخالصة من نصاب المعرفة البشرية:[٤] ينسى أن كل تجربة حسية مسبوقة بمعرفة نظرية .. ولم تكن المعرفة النظرية خاطئة في كل التجربات ؛ فَصِدْق وصحة بعض المعارف النظرية دليل على صحة المعرفة العقلية الخالصة .

وهَبْ أنَّ معرفة العقل الخالصة لا تتأتَّى إلا من تجريدات وعمومات حسية .. إلا أننا في هذا التجريد والتعميم نصل إلى معرفةِ وجودِ ما لم نحسه بعد ؛ فكلامنا عن الشيء الذي نعرفه وليس عن مادتنا في المعرفة .. ولست الآن بصدد إقامة البرهان على وجود

(٤) قال **أبوعبدالرحمن** : اخترتُ في منهجي عن رسم علامات الترقيم ـ الذي شرحته بكتابي « رسم القلم » ـ أن أجعل النقطتين الرأسيتين بين الخبر والمبتدأ إذا طال الفاصل؛ لأن المبتدأ في حكم القول الذي يطلب مقولاً ، وفي حكم جهة القسمة التي تقتضي أقساماً .

معرفة حسية عقليـة ومعرفة عقلية خالصة ، وإنما حديثي عن المعرفة الحسية العقليـة فقط؛ فالمعرفة الحسية هي التي ألتقطها بحواسي الخمس الظاهرة، وسأستثني من البحث ما أعرفه بحسي الباطن الذي يدرك ألم الحزن ولذة الجماع .. والشيء المحسوس الذي عرفته بحسي لابد أن يكون له مقدار من الكمية أو شكل من الأشكال الكيفية ، وهو ما يسمونه بالمادة ، وهي الكائنات الحية من الحيوان والنبات ، وغـير الحية من الجوامد والسوائل والكهارب والذبذبات والطاقة .. والماديون يسمون هذه الأشياء بالطبيعية .

قال **أبوعبدالرحمن** : الطبيعة في أغلب أشكالها، وفي جميع عناصرها هي هذه الانعكاسات في تصوُّر العقل ، ومشاهدة العلاقات بينها هو مصدر أحكام العقل في قوانينه وتجريداته وعموماته .. والبرهان على ذلك أن الكائنات موجودة قبل الوعي ، وأن الكائنات لا تفتقر في وجـودها إلى مخلوق بشري يعيها .. بيد أن عدداً من الفلاسفة تقَحَّموا حماقات إيديولوجية يحار الفكر في تسليمهم بها ـ مع عظـم عبقريتهم ، وسعة معارفهم ـ؛ فثمة فلاسفة يُعرفون بالمثاليِّين الذاتيِّين مثل باركلي(٥)

(٥) قال **أبوعبدالرحمن** : **جورج باركلي** [١٦٨٥-١٧٥٣م] الإيرلندي، وهو فيلسوف المثالية (اللامادية) في القرن الثامن عشر الميلادي .. إلا أن مثاليته خلط متناقض؛ فهو يجعل مدركات العقل نوعين : **أحدهما** : نكوِّنه بأنفسنا بفعل الخيال.. **وثانيهما** : يتكوَّن عن طريق الحس ، ويصل إلينا على الرغـم

وماخ(٦) .. يقولون : ما ثمة موجود موضوعي خارج حسنا ، وإنما الموجود الإحساس الذاتي .. أي الثابت في إحساسي ، أو المشترك في إحساس عدد من الناس ! .. ويترتب على هذا المذهب أن الإنسان لا يعرف الأعيان بصفاتها وخصائصها .. أي أنه لا وجود لشيء خارج الحس البشري له صفات وخواص ، وإنما الحس البشري بوجود هذه الإحساسات فيه خَلَق أشياءَ خارج الحس ومنحها صفاتٍ وخصائص !!.. ويلزم هؤلاء أنه لا وجود إلاّ للوعي البشري ، وبعضهم يقول : توجد أعيان خارج وعينا ولكن حسنا

منا؛ فهذه مصدرها الله وحده سبحانه جعلها في عقولنا!!.. وليست أفكارنا بقسميها صوراً مماثلة للعالم الخارجي .

قال **أبوعبدالرحمن** : لا أعلم أن له كتاباً مترجماً إلى العربية سوى المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس بترجمة الدكتور يحيى هويدي/ دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٦م، ولكن كتب الفلسفة وتاريخها ومصطلحاتها مشحونة بآرائه .

(٦) قال **أبوعبدالرحمن** : **إرنست ماخ** [١٨٣٨-١٩١٦م] النمسوي : يهودي صهيوني متحمِّس، بث في فلسفته الحسبانيةَ (السفسطة) بكل صورها بمراوغات إنشائية، ومغالطات لغوية؛ فالوسيلة العلمية التحقُّق، وأما البرهان فلا يقبل التحقق ولا الإنكار؟!! .. ويقول : أنا أُخطئ عندما أجزم بوجود كتاب أحمر على الطاولة التي أمامي.. إلا أنني لا يمكن أن أخطئ عندما أقتصر على وصف إحساساتي عن هذا الكتاب ؟!! .. انظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة للدكتور عبدالمنعم الحفني (٢/ ١١٩٧-١١٩٩)، وهو من كبار طواغيت جماعة فيينا التخريبية .. لا أعلم له كتاباً مترجماً إلى العربية، وشأن وصول فلسفته إلى العربية شأن فلسفة باركلي .

البشري لا يعكس لنا صورة هذا الوجود ، ولا سبيل لنا إلى المعرفة إلا بالحس ؛ لذا فنحن عاجزون عن معرفة الأعيان الموجودة؛ وبهذا يلتقون في كلتا الحالتين مع الارتيابيين .. ومعرفتُنا المجردةُ دعوى المثاليين ـ أي تصورنا لدعواهم عن فهم لها ـ ، ومعرفتنا دعوى من يقول باستحالة المعرفة : كافٍ للدلالة على سخافة هذه الدعوى ، ولكن الإنصاف يقتضي عرض وجهة نظرهم مصحوبةً بتأييداتهم لها.. ولقد رأيت أنَّ كل تأييد لهذه الدعوى يقوم على التمثيل بحالات من حالات خداع الحواس غير السليمة ، أو ضعف إدراكها، أو المغالطة بوقائع حسية علىأنها من خداع الحواس .. خذ على سبيل المثال :

١- يقول الفيزيولوجي الألماني موللر(٧) : « إن الإحساسات لا تتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي ، بل بأعضاء الحواس ذاتها (الطاقة النوعية الملازمة لها) ، وهذا يعني أن معرفتنا الحسية ليست انعكاسات للعالم الخارجـي ، وإنما هي من معطيـات الحس ذاته .. وقد وسَّع

(٧) جان موللر Jean Muller وُلِد في كوبلنس Coblence في عام ١٨٠١م، ومات في برلين عام ١٨٥٨م .. كان أستاذاً في بون وبرلين ، ثم أصبح مشرفاً على جامعة برلين .. وتركزت أعماله على الفيزيولوجيا العصبية على وجه الخصوص .. انظر معجم لاروس القرن العشرين (بالفرنسية) ج٤ ص١٠٣٥ [د. البقاعي] .

فورباخ(٨) هذه النظرية وسماها (المثالية الفيزيولوجية).

قال **أبوعبدالرحمن** : ما داموا يتكلمون بلغة فيزيولوجية فالأمر هيِّن .. إن المعرفة الحسية التي نعُدُّها انعكاساً للواقع الخارج لا تنكر أن للحواس معطيات من ذاتها لا تعكس الواقع ، ونحن نستثني حالة خداع الحواس من المعرفة الحسية التي نؤمن بها ، والمعرفة الحسية المبرأة من خداع الحواس مشروطة بسلامة الحواس ؛ فالعين السليمة المجردة تعكس العالم الخارجي، ولكنها لا تعكسه كما يعكسه المجهر.

٢- يذهب (هيلمولتز)(٩) أحد العلماء الطبيعيين في القرن التاسع عشر ـ في كتاب له اسمه فيزيولوجية البصريات ـ إلى أن الإحساسات رموز للظواهر الخارجية ينتفي عنها كل تشابه مع

(٨) قال **أبوعبدالرحمن** : **فورباخ** (لودفيج أندرياس) [١٨٠٤-١٨٧٢م] الألماني من كبار الملحدين المهاجمين للأديان .. جمع بين نقيضي المادية والمثالية، وعنه نشأ ماركس وإنجلز !!.

(٩) في الأصل المترجم : غيل مغولتز، والصواب **هيلمولتز** Helmholtz اسمه هيرمان لودفيك فرديناند فون هيلمولتز ، فيزيولوجي وفيزيائي ألماني.. وُلد في بوتسدام عام ١٨٢١م، ومات في شارلوتنبورج عام ١٨٩٤م ، وألف كتاب دليل البصريات الفيزيولوجية عام ١٨٥٦م، وله غيره نظرية فيزيولوجية للموسيقى قائمة على دراسة الأحاسيس السمعية ألفه في عام ١٨٥٦م.. تنقَّل في عدة مناصب طبية خلال حياته .. انظرمعجم لاروس القرن العشرين (بالفرنسية) .. وفي الأصل المترجم ورد اسم كتابه كما هو مثبت أعلاه «فيزيولوجية البصريات»، والصواب «دليل البصريات الفيزيولوجية» [البقاعي].

الأشياء التي تمثلها .. وهذا يعني أن الحس البشري لا يعكس الواقع؛ لأنه لا تشابه بين الإحساس والمحسوس .. وعلى هذا أيضاً يكون الإحساس مجرد رمز[10]، ونظـرية الرمز هذه تسمـى (النظرية الهرغلوفـية)[11].. قال بهـا بليخانـوف[12]، وتحرير مناقشة هذه الدعوى: أن إحساسنا ينقل لنا الأعيان في الخارج على صورة واحدة - هي الصورة التي تلقَّاها حسُّنا عن وعي -، وليس ذلك

(١٠) قال **أبوعبدالرحمن**: إضافة الوصف إلى الموصوف أسلوب عربي؛ لنكتة بلاغية، وهي الاهتمام بالوصف؛ فيقدم بجعله مضافاً.

(١١) **الهيروغلوفية** hieroglyphic نظام للكتابة يستخدم للرموز التصويرية على نحوٍ أساس، وأصل الكلمة في اليونانية يعني «النقش المقدس»؛ وذلك بسبب استخدامها البارز في المعابد والقبور، وهي تنطبق على شكل من الأنظمة التصويرية للكتابة المؤسسة في مصر حوالي ٣٠٠٠ ق. م .. على الرغم من أن أنظمة أخرى مشابهة يمكن العثور عليها في الصين، ووادي الإندوز في جنوب آسيا، وأمريكا الوسطى وغيرها .. انظر كريستل قاموس اللغة واللغات ص١٧١، وانظر و. ج. ت. ميتشـل علم دراسة الأيقـونات: الصورة والنص والأيديولوجية (بالإنجليزية) مطبوعات جامعة شيكاغو، ١٩٨٧م، ص٢٨ [د. البقاعي].

(١٢) قال **أبوعبدالرحمن: بليخانوف** (جيورجي فالينتينوفنش) [١٨٥٦-١٩١٨م] من طواغيت الحركة الشيوعية الأوائل، وأول من أطلق على الماركسية «المادية الجدلية».. ولقد صدر بالعربية المجلد الأول من أعماله بعنوان: «المؤلفات الفلسفيـة» بترجمة الدكتور فؤاد أيوب عن دار دمشق عام ١٩٨٠م.. وفي ص ٦٨٥-٧٢٥ من المجلد الأول كتب فيرافومينا ترجمة له بعنوان «جورج بليخانوف ودوره في الدفاع عن الفلسفة الماركسية وتفسيرها».

مشروطاً بأن ينقل لنا حسُّنا الصورة لكل جانب من جوانب أحد الأعيان، بل هذا مرهون بطاقة الحس واستعداده .. وفي شريعة ربنا نحن مكلفون (في عبادتنا، ومعاملتنا) وَفْق الطاقة الحسية المشتركة بين المسلمين؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .. وحسُّنا مهما كانت طاقته يعكس لنا شيئاً موجوداً، ولا يخلع على الأشياء صفات غير صفاتها، وإنما يعكس صورة الموجود؛ فرؤيتنا للقمر قرصاً أصفر بالعين المجردة انعكاس صحيح لصفحة القمر حال بعده، ورؤيتنا له ودياناً وجبالاً بالتيلسكوب المكبر انعكاس صحيح لصفة القمر حال قربه؛ ولإيضاح هذه الحقيقة أناقش صورتين من صور الخداع الحسي؛ ليكون ذلك أنموذجاً لنقاش كل صورة من صور الخداعِ الحسي:

أ- الصورة الأولى: لنأخذ شيئين موجودين في غرفة واحدة في شروط واحدة: أحدهما معدني، والآخر خشبي؛ فسنجد أن اليد تحس بأن المعدني أبرد من الخشبي مع أن حرارتهما واحدة؛ فالإحساس باللمس خدعنا؛ فكيف نجعل الإحساس صورة للواقع؟! .. ويجيب العلماء عن ذلك: بأن حرارة المعدن والخشب متساوية بلا ريب .. إلا أن الخشب سيِّءُ النقل للحرارة إلى اليد بخلاف المعدن الذي ينقل الحرارة بسرعة؛ فإحساس جلدنا اللامس انعكاس للفارق بين سرعتي الحرارة؛ وعلى هذا يكون إحساسنا

نقل لنا صورة من صور الواقع .

ب- **الصورة الثانية** : إذا وضعت يدي اليمنى في ماء ساخن ، ووضعت اليسرى في ماء بارد ، ثم نقلتهما إلى ماء عادي : تبيَّن لي أن اليمنى تشكو البرودة مع أنها خرجت من الماء الساخن .. في حين أن اليسرى تشكو الحرارة مع أنها خرجت من الماء البارد ؛ فالحواس نقلت لنا عكس الواقع؛ فكيف تكون صورة له ؟! .. ويجيب العلماء عـن ذلك : بأن قانون الفيزياء يقـرر أن الحرارة تنتقل من الأجسام - التي تتمتع بحرارة أعظم - إلى الأجسام التي تتمتع بحرارة أدنى ؛ فالحسُّ نقل لنا صورة من صور الواقع(١٣) .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذه مغالطة بوقائع حسية ليست من خداع الحواس، وإنما يكون خداعها حال اعتلالها ، وذلك لا يعني اطراحنا للحواس وهي مصدر معرفتنا ، بل يعني استقراءها وتحليلها بشكل صحيح دقيق ، ويعني الإحاطة بقوانين الأعيان ، وكل ذلك لا يتأتَّى إلا بعد استخدامنا للحواس : بأن نربط معطياتها بنشاط التفكير عندنا .. قال مؤلفو المادية : « ليس هناك مجال للشك المبدئي بما تدلنا

(١٣) انظر المادية الديالكتية ص١٦٤-١٦٥ من تأليف جماعة من الأساتذة السوفييت بترجمة فؤاد مرعي، وبدرالدين السباعي، وعدنان جاموس / دار الجماهير.

عليه أعضاء حواسنا ، ولكن هذا لا يعني أن الإحساسات تعطي صورة دقيقة كل الدقة من الواقع الموضوعي في ذات اللحظة التي يصبح فيها هذا الواقع موضوع إدراك أعضاء حواسنا .. إن الصورة الأولية للأشياء المادية تتوضح وتغتني وتتكامل تدريجياً على أساس الإدراكات المتكررة كثيراً ، وعلى أساس عمل الفكر المتحقق منه بمختلف أعضاء الحواس ، وعلى أساس نشاط الإنسان العلمي المتعدد الجوانب »(١٤) .

قال **أبوعبدالرحمن** : من المسلَّم به أن القانون الفكري مصوغ من قوانين الطبيعة ؛ لأن الله خلق العقل ليفهم ماحوله على ما هو عليه .. وفي منطق المفكِّر المسلم أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وفق نواميس مضبوطة مطَّردة تحكمه ، وتفكير البشر المخلوق مربوط بجسه الظاهر والباطن ؛ فيستحيل وجود معنى في العقل وإن كان متخيلاً كالعنقاء لا مادة لأجزائه في مشاهداتنا الحسية .. ونتيجة الإيمان بأن قانوننا الفكري مصوغ من قانون الله الكوني : أن العقل يرفض التصديق بالمستحيل والدور والتناقض ، وكل فكرة تفرضها عقولنا فإنما هي بالنسبة إلى قانون الطبيعة الذي فرضه خالق الفكر والطبيعة ، وأحكام العقل الصادقة قائمة على تجريدات عقلية من

(١٤) المصدر السابق ص١٦٦ .

حس صادق ، ومصدر الإحساس الطبيعةُ حولنا .. إن الطبيعة سابقة للوعي البشري ؛ لأن كل مولود منا يفتح وعيه على كائنات موجودة قبل أن يوجد هو ووعيه؛ فإذا تفتح وعيه على الكائنات عكس له حسه البشري صورة الكائنات.. ومن تجمُّعِ هذه الانعكاسات، ومشاهدة العلاقات بينها أو الفروق : يأخذ العقل أحكامه وقوانينه وتجريداته وعمومياته .. وكل تأييد لدعوى أن العقل لا يعكس الواقع كما هو إنما يقوم على التمثيل بحالات من حالات خداع الحواس كما سبق من قول الفيزيولجي الألماني هيلمولتز : «إن الإحساسات لا تتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي ، بل بأعضاء الحواس ذاتها» .. وقد وسع فورباخ هذه النظرية وسماها المثالية الفزيولوجية .. كما مضى الكلام عن مذهب هيلمولتز .. ونظرية الرمز عنده تسمى النظرية الهروغلوفية ، وقد قال بها بليخانوف .

قال **أبوعبدالرحمن** : الإنسان مخلوق بعقله وحسه، وعقله وحسه معرضان للآفات كأي مخلوق ، وإذا اعتلت آلة الإدراك لم تحصل صورة موضوع الإدراك كما هو في الطبيعة .. والذين يدَّعون رمزية الإدراك ـ على افتراض حسن الظن بمقاصدهم ـ مُضَلَّلُون (بصيغة اسم المفعول) بأحد أمرين :

الأمر الأول : قياس إدراك الحواس السليمة على الحواس السقيمة ، وهذا قياس مع الفارق .

والأمر الثاني : إلغاء قانون النسبية مع أن النسبية مشاهدة حسية مجمع عليها .

قال **أبوعبدالرحمن** : حِسُّنا مهما كانت طاقته يعكس لنا شيئاً موجوداً ، ولا يخلع على الأشياء صفات غير صفاتها ، وإنما يعكس صورة الموجود ؛ فرؤيتنا للقمر قرصاً أصفر بالعين المجردة انعكاس صحيح لصفحة القمر حال بعده ، ورؤيتنا له وديـاناً وجبالاً بالتليسكوب المكبِّر انعكاس صحيح لصفة القمر حال قربه .. وهكذا ما سبق من حالة الحرارة والبرودة في الخشب والمعدن : نرى أن إحساس جِلْدنا اللامس انعكاسٌ للفارق بين سرعتي الحرارة ؛ وعلى هذا يكون إحساسنا نقل لنا صورة من صور الواقع .

وذوو نظرية الرمز هذه أصحاب نسبية سوفسطائية مؤدَّاها أنه لا حقيقة في الوجود ، وإنما الحقيقة بالنسبة إلى من يعتقدها .. أما من يقيِّد وضعيَّة المحسوس بوضعية آلة الحِسِّ فذو نسبية علمية تقول : كلمة طويل كلمة فارغة لا معنى لها إلا بتصور ما هو أقصر ، ولو لم يوجد القصير لما كان للطويل معنى .

ونحن نصوغ البرهان بتسلسل رياضي ؛ فمصدر البرهنة الأول بديهة العقل ، أو أوائل العقل ، أو ضرورات العقل ، أو المقدمات كما يسميها ابن حزم ، أو الأفكار الخالصة كما يسميها ديكارت .. ومن هذه البديهيات نستمد براهيننا في كل المعارف ؛ فنعرف أن

الآية برهان ، وأن الخبر المتواتر حجة ، وأن مقتضى الألفاظ لغة برهان على مراد العرب ؛ فما هي إذن هذه البديهيات ؟.. إنها ما يحيل العقل إنكاره ؛ فمن المحال أن يكون الكل أقل من الجزء ، ومن المحال أن يجتمع النقيضان والمكان والزمان واحد ، ومن المحال أن يكون شيء في غير زمان ، ومن المحال أن يكون فعل دون فاعل .. إلخ ؛ إذن قانون هذه البديهيات واحد ، وهو : أن الباطل ما اضطر الإيمان به إلى محال عقلي يُعرف أنه محال بفطرة العقل ، وأن الحق ما اضطر التكذيب بهِ إلى محال عقلي يعرف أنه محال بفطرة العقل .. وهذه الفطرة هي التي نسميها ضرورة العقل .. وكل برهان صحيح في الوجود إذا حللته انتهى إلى ضرورة عقلية .

والبرهان على أن هذه البديهيات ضرورية عورض باحتمال خلاصته : ألا يكون ما سميناه ضرورة فطرية معتمداً على خبرتنا الحسية ؟.. إن أحدنا يعرف أن ٢×٢=٤ ، ويظن أنه عرف ذلك بالبداهة الفطرية ، ولكن الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط يقول : « إننا تعلمنا ذلك في الطفولة.. أي اعتمد العقل على الخبرة الحسية بالعدِّ على الأصابع شيئاً فشيئاً .. إننا تعلمنا ونسينا كيف تعلمنا ذلك ؛ فظننَّا أن هذا بداهة »(١٥) .

(١٥) انظر على سبيل المثال ترجمة أحمد الشيباني لكتاب « كانط » بعنوان نقد العقل المجرد ص٩٥٨-٩٥٩ ، وص١٩٢ .

قال **أبوعبدالرحمن** : لا ريب أن هذه بديهة أخذها العقلُ واقعةً من خبرته الحسية ، وأقرَّها حكماً بغريزته الفطرية .. ولو سُلِّم بمذهب كانط في هذا المثال فإن الإمام ابن حزم لا يرى في هذا المثال كفاية لخلوِّ العقل من بداهة فطرية ؛ فلديه مثال غير ما ذكره كانط يدل على البداهة الفطرية ، وهو أن الصبي في أول تمييزه قبل معرفته للعدِّ على أصابعه إذا أعطيته تمرتين بكى ، وإذا زدته ثالثة سر ؛ فأي خبرة اعتمد عليها ثم؟ .. وإنما عقله فُطِر على أن الكلَّ أكثر من الجزء(١٦) .

قال **أبوعبدالرحمن** : هب أنني لا آمن أن تكون بعض الأمثلة التي ذكر أبومحمد أنها من المعرفة العقلية الفطرية : ترتد كلها إلى الحس ؛ فنقول : إن الصبي ما سُرَّ بالتمرة الثالثة إلا لأنه جرَّب مرة بحسه أن الثلاث خير له من الاثنتين .. وهذه عقدة معضلة (أعني خلوص الأفكار وانبثاقها من الخبرة الحسية) .. إلا أن الخلاف في أن كل أفكارنا منبثقة من الحس ، أو أن فيها ما هو فطري خالص : لا تأثير له فيما نجنح إليه لتشخيص البرهان المعتبر ؛ فهب أن كل الأفكار منبثقة من خبرة الحس.. إلا أن هذه الخبرة الحسية تولِّد منها ضرورات عقلية لا ريب فيها ، ولا ينقضها إلا خبرة حسية أخرى

(١٦) الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل ١/ ٤٠ بتحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر، وعبدالرحمن عميرة / دار الجيل ببيروت .

إن وجدت ؛ فإيمان عقلي بأن الضدين لا يجتمعان في آن ومكان واحد من الممكن أنني بنيته على خبرة حسية ؛ إذ رأيت أن الضدين لا يجتمعان .. إن هذه الخبرة الحسية هدتني إلى أن قانون الوسط المرفوع ضرورة عقلية لا ينقضها إلا خبرة حسية أخرى بحيث أرى ضدين اجتمعا ؛ إذن عندنا بدائه عقلية ضرورية هي أم البراهين : سواء أكانت مكتسبة من الحس ، أم من الفطرة ؛ وإذن فَلْنُسَمِّهَا بَدَائهَ العقلِ الضرورية .

قال **أبوعبدالرحمن** : هذا تنزُّلٌ في الاستدلال، وإلا فعقيدتي قائمة على وجود بديهيات ضرورية فطرية ؛ وقد برهن الإمام ابن حزم على ذلك بقولـه : « هذه المقدمات [يعني البديهيات] لا يطلب عليها دليلاً إلا مجنون أو جاهل؛ لأن الاستدلال على الشيء لا يكون إلا في زمان؛ لأنه عُلم بضرورة العقل أنه لا يكون شيء مما في العالم إلا في وقت، وليس بين أول أوقات تمييز النفس الحسي وبين إدراكها العقلي مهلة ألبتة فصحّ أنها ضرورات »[١٧] .

قال **أبوعبدالرحمن** : وقد يُعترض على برهان أبي محمد رحمه الله بدعوى خللٍ من جهتين :

أولاهما : أنه بناه على أن البدائه العقلية فطرية في ذاتها ؛ إذ

(١٧) انظر الفصل ١/ ٤١، والنقل عنه باختصار .

جعل المعرفة العقلية والحسية في آن واحد وليس بينهما مهلة .. وهذا غير مسلم له ، والقائلون من أمثال « جون لوك » : بأن العقل صفحة بيضاء ينقش فيها الحس معارفه أرجح أدلة من أدلة أبي محمد .

وثانيهما : أن أبا محمد استدل على صحة الضرورة العقلية بالضرورة العقلية ، وهذا دور محال[١٨] ؛ إذ يحيل العقل أن يكون

(١٨) قال **أبوعبدالرحمن** : الدور بأقسامه ، ومحاله وجائزه : من مباحث هذه الأسفار إن شاء الله ، وأوجز الآن كليمة من كتاب المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي / ضمن المصطلح الفلسفي عند العرب ص ٣٣٢-٣٣٣؛ فقد مثل له بقياس منطقي يجعل النتيجة عين المقدمة الأولى [الكبرى] .. قال : « وأما قياس الدور فعبارة عن أخذ النتيجة مع عكس إحدى مقدمتي قياسها؛ لاستنتاج عين المقدمة الأخرى كما لو قيل :

كل إنسان ناطق [المقدمة الكبرى] .

وكل ناطق ضاحك [المقدمة الصغرى] .

فكل إنسان ضاحك [النتيجة] .. فقيل: كل إنسان ضاحك [النتيجة سابقاً، المقدمة الكبرى الآن]، وكل ضاحك ناطق [عكس المقدمة الصغرى سابقاً] ؛ فيلزم عنه : كل إنسان ناطق [النتيجة الآن ، وهي عين المقدمة الكبرى سابقاً] ، وهو دور ؛ لما فيه من جعل النتيجة مقدمة في استفتاح إحدى مقدمتي قياسها » .

قال **أبوعبدالرحمن** : تعريف الإنسان بالناطق نتيجة مقدمتين في حين أن هذا التعريف النتيجة هو المقدمة الكبرى بعد عكس المقدمتين في القياسين ، ولقد عرفوه بتوقف كل واحد من الشيئين على الآخر ، والدور أنواع :

الشيء في ذاته جملةً حجةَ نفسِه في ذاته جملة .. وهو شيء يسميه المنطقيون المصادرة على المطلوب(١٩) .. وعلى هذا يكون مذهب

أ- علمي ، وهو توقف العلم بكل من المعلومين على العلم بالآخر .

ب- إضافة مَـعِـيْ ، وهو تلازم الشيئين في الوجود حتى لا يكون أحدهما إلا مع الآخر .

ج- حكمي ، وهو الحاصل بالإقرار كأخ أقرَّ بابنٍ للميت ثبت نسبه ولا يرث ؛ فإن توريثه يؤدي لعدم توريث الأخ .

هـ- الدور التقدمي وهو توقف الشيء بمرتبة أو مراتب على ما يتوقف عليه بمرتبة أو مراتب :

١- فإذا كان التوقف في كل واحدة من الصورتين بمرتبة واحدة كان الدور مصرحاً .

٢- وإن كان أحدهما أو كلاهما بمراتب كان مضمراً .

قال أبوعبدالرحمن : وفي كل هذا عسر فهمٍ أُذلِّلُهُ إن شاء الله بسِفْر عن الدور والتسلسل والمصادرة .

(١٩) قال الآمدي في كتابه « المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين » / ضمن كتاب المصطلح الفلسفي عند العرب ـ بدراسة وتحقيق الدكتور عبد[رب] الأمير الأعسم / دار الفكر العربي ببغداد / الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ، ص٣٣٩-٣٤٠: « المصادرة على المطلوب عبارة عن أخذ المطلوب في بيان نفسه ، وذلك مع تبديل اللفظ بما يُرادفه كما لو كان المطلوب : كل إنسان ضاحك .. فقلتُ : كل إنسان بشر ، وكل بشر ضاحك .. فإنه وإن أنتج «كل إنسان ضاحك » ؛ فليس عينُ المطلوب عينَ المقدمة الكبرى » ، وانظر شرح نصير الدين الطوسي لكتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا ـ بتحقيق الدكتور سليمان دنيا / الطبعة الثانية عام ١٩٧١م/ دار المعارف

المعترض : إن البشر بدأ إدراكهم بالحس ثم بالعقل ، ومرجعهم في أخذهم وردهم بالحس والعقل .. ومن أنكر هذين المصدرين من مصادر البرهان فسيجادلك بحسه وعقله ؛ وإذ هذان هما السبيل إلى البرهان فلا مندوحة عن الاحتجاج بالحس والعقل جرياً على فطرة الله التي فطرنا عليها .. وقد أخذ عقلنا من حِسِّنا بَدائهَ ضرورية استدللنا على ضروريتها بأن لم نجد حساً بشرياً آخر ينقضها ؛ فمنذ فجر البشرية حتى الآن لم نجد في حس البشر أن الضدين يجتمعان في آن واحد ومكان واحد؛ إذن هذه معرفة حقيقية فُطر حسنا وعقلنا على معرفتها، وإنكارها محال في حسنا وعقلنا ؛ وإذ صح أن الله فطرنا على المعرفة بالحس والعقل فهذه البدائه فطرية ؛ لأنها نتائج عامة فطرنا عليها .

قال **أبوعبدالرحمن** : كل هذه الاعتراضات لو صحَّت لما كان فيها ملجأٌ للارتيابيين ؛ لأن الذي ارتفع بالاعتراضات مفهوم الفطرية العقلية ، ولم يرتفع مفهوم الضرورة البرهانية .. إلا أن تلك الاعتراضات غير واردة لثمانية أمور :

أولها : أن العقل صفحة بيضاء خالية من المعارف الحسية حتى تبدأ مباشرتُه الأَخْذَ من الحس .. ولكن هذا لا يعني أنه صفحة بيضاء من غرائز فطرية سابقة يباشر بها تحصيل المعرفة والحكم فيها .. وبرهان

بمصر ١/ ٤٩٧-٤٩٨ ـ ، وسأفرد لها إن شاء الله سفراً خاصاً مع الدور والتسلسل .

ذلك أن أول مباشرة حسية للإنسان عد بها ١+٢=٣ ؛ فعلم أن الكل ٣ ، وأن الجزء ١ و ٢ ، وأن الكل أكثر من الجزء : لم تُحصِّل له بالحس المجرد إلا رؤية الجزء والكل ، وأن البصر أدرك كميةً أكبرَ من كميةٍ عند جعل الجزء في جهة والكل في جهة .. إلا أن هذا الحس لا قيمة له حتى يصححه العقل تصوراً ؛ فهذه واحدة .. كما أن التمايز كثرة وقلة بين الجزئي والكلي ــ بعد تصحيح العقل لوجود الأجزاء تصوراً ــ لا قيمة له حتى يصححه العقل تصوراً ؛ فهذه ثانية ، كما أن «أقل» و «أكثر» أحكام عقلية ، والحس إنما يعطي صوراً يختزنها العقل، ويحكم فيها وينقلها للعقل الإنساني المشترك بلغة فكرية .

كذلك يستحيل الجزم بأن الطفل في أول تمييزه إذا رأى شيئاً جديداً وسأل : « من جاء به ؟» ، أنه ما سأل عن السبب إلا لأنه جرب بحسه أن كل شيء له سبب ؛ لأننا نطالب بمعرفة أول مشاهدة له ارتبطت بتمييزه العقلي ، وأما قبل بداية التمييز العقلي فحسه غير معقول له ؛ إذن البحث عن السبب سابق لأول مشاهدة له ارتبط بها تمييزه العقلي .

وثانيها : أن بديهة السببية ، ثم العلة الكافية حكم لا مشاهدة ، فالطفل لا يطلب مشاهدة السبب الذي أحضر هذا الجديدةَ مشاهدته، وإنما يسأل عن حكم مجيء هذا الجديد : من جاء به ؛ لأن السببية غريزة في عقله ؛ فهي عمل عقلي لا حكم .. إن خبرته قد تُمِدُّه في

أول تمييزه بمشاهداتٍ ومسموعات لا يعرف أسبابها ؛ فالسؤال عن السبب هو الغائب عن حسه ، وهو الموجود غريزة في عقله .

وثالثها : أن الله ما فطر العقل على غرائز مثل السببية عبثاً، بل جعله سبحانه ضمانة للإنسان المكلف؛ ليعلم ما علم من الكون كما هو عليه ؛ إذ العقل خَلْقُهُ ، والكون خلقه ، وقد خُلق عقل الإنسان ليعلم ما يحيط به من الكون؛ لهذا كان من المحال أن تُمِدَّه الخبرة بموجود بلا سبب ؛ بل الخبرة الحسية دائماً تؤكد فطرته العقلية كالسببية بالشواهد ولا تنفيها ألبتة ؛ فالعقل والكون سنتان لله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً إلا بفعله هو سبحانه إذا نقض أحد النواميس كجعل نار إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً: إما بنقض مفعولها وهو تخلف مقتضي الإحراق ، وإما بحاجز غير مرئي للبشر يمنع عنه أثرها وهم يرون إبراهيم عليه السلام وسط النار ولا يزون الحاجز .. والاحتمال الأول أصحّ لفعل الكينونة في قولـه : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الأنبياء / ٦٩] .

ورابعها : أن أبا محمد لم يجعل كل بديهة ضرورية فطرة عقلية ، وإنما حكم ببدائه عقلية فطرية غير البدائه العقلية المكتسبة من الحسِّ .

وخامسها : أن اطراد القانون العقلي الفطري في الخبرة الحسية جعلهم يظنونها ضرورة مكتسبة .

وسادسها : قولهم : « المعرفة الحسِّية » بمقابل « المعرفة العقلية » وَهْمٌ ؛ لأن ما صدر عن الحس معروف لا معرفة .. أي موضوع

للمعرفة ، والعارف حقيقة هو العقل ؛ فهناك معرفة عقلية بالفطرة ، ومعرفة عقلية بالحس ــ ومنها الأخبار ــ، ومعرفة إلهامية لا تكون عقلية إلا بعد وقوعها وتصحيح العقل لها .

وسابعها : من المعلوم أن المحسوس لا يكون معرفة حتى يعيه العقل تصوراً وحكماً وعلماً بسبب سلامة الحس؛ فأول وجودٍ لتمييز العقل لدى الطفل هو بداية معرفته .. وما سبق ذلك غرائز طبيعية لا فطرة عقلية ؛ وإذ لا معرفة بالمحسوس إلا بالعقل فالنتيجة أن المعرفة تبدأ بإدراك الحس ؛ إذن لا مهلة في المعرفة بين المثول الحسي والإدراك العقلي ؛ لأن ما قبل إدراك العقل ليس علماً ؛ فصح أن المعرفة العقلية الأولية ضرورة غير اكتسابية ؛ لأنه لا يكون الاكتساب إلا بمهلة زمنية .

وثامنها : أن أبا محمد رحمه الله لم يستدل بالضرورة العقلية على الضرورة العقلية ؛ ليكون هذا دوراً أو مصادَرَةً ، بل عَبَّر بضرورة العقل دليلاً على ضرورة عقل أخرى ؛ فالضرورة الأولى غير الضرورة الثانية .. الضرورة الأولى : « أن الاستدلال على الشيء لا يكون إلا في زمان »؛ إذن لم يَبْنِ ضرورة على ضرورة ــ وهذا جائز ، وإنما غير الجائز الاستدلال على الضرورة بالضرورة نفسها ــ ، وإنما أنتج من الضرورتين : أن في العقل معارف فطرية ضرورية غير اكتسابية ؛ لأنه حصل بها العلم ابتداء بلا مهلة زمنية يكون فيها الاستدلال اكتساباً ؛ إذ لا استدلال إلا في زمان ، ولا وجود لشيء إلا في زمان ، والعلم العقلي الفطري عَلِمَ بلا مهلة زمنية بين عِلْمه الفطري وبين إحساسه بما هو كائن في الطبيعة مما وصل إلى حسه، والعلم لا يوجد إلا في زمان .

والضرورة الفطرية العقلية البدهية أُمُّ البراهين ، وعنها يتولَّد كل برهان .. يقول الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله : « ما شهدت له بديهة من هذه البدائه فهو صحيح متيقَّن ، وما لم تشهد له بالصحة فهـو باطلٍ ساقط »[٢٠] .

قال **أبوعبدالرحمن** : وهي أم البراهين بطريقين :

الأول : **مباشر** ؛ فإذا قلت « أبوعبدالرحمن في عزبة النخل بالقاهرة المحروسة ، وفي الناصرية بالرياض المحروسة يوم الاثنين الموافق ٣/ ١٢/ ١٣٩٥هـ في تمام الساعة الخامسة نهاراً في هذين المكانين ساعة واحدة لم ينتقل من أحد المكانين خلالها » : قيل: هذا باطل ؛ لأن البديهة العقلية تحيل ذلك مباشرة ، وهو أن العقل بفطرته يحيل أن يكون الشيء الواحد غير المتجزئ كله في مكانين متباعدين لا يسعه ملؤهما في آن واحد .

والثاني : **غير المباشر** ، وهو تعدد الوسائط ، فإذا قلت : ما البرهان على أن الصلاة واجبة بطريق العقـل؟ .. قلت : الدليل قولـه تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [سورة البقرة / ٨٣] ؛ لأنني عرفت بعقلي أن الله واجب الوجود بصفات الكمال؛ إذ نفي ذلك محال عقلي ؛ فيستحيل أن يكون هذا الخلق بدون خالق .. وعرفت بعقلي أن محمد ﷺ مرسل لنا من ربه ؛ لأن آياته الحسية والمعنوية دلت على صدقه ، وأنه رسول

(٢٠) الفِصَل ١/ ٧ .

الله ؛ إذ يحيل عقلي وحسي التكذيب بدلالة هذه الآيات .. وعرفت بعقلي : أن هذه الآية الآمرة بالصلاة من عند الله ؛ لأن الكافة نقلتها اتفاقاً ؛ فلو غيَّرَ متلاعِبٌ في الغرب حرفاً منها لأدرك ذلك عامي مسلم في المشرق .. وعقلي يحيل التكذيب بالتواتر ونقل الكافة ، وقد نقلوها عن محمد ﷺ الذي آمن عقلي بأنه رسول الله ، وهذا الأمر بالصلاة يقتضي الوجوب ؛ لأنه مقتضى لغة العرب التي أحسستُها بسمعي ؛ فلو صرفتها عن مضمون لغة العرب لكنت متعدياً ؛ وعقلي يحكم ببطلان التعدي؛ إذن الصلاة واجبة عقلاً بموجب هذه الوسائط المتسلسلة .. والوسائط من المعرفة البشرية إلى وسيطة « الأمر بالصلاة يقتضي الوجوب » ؛ فهذا من المعرفة الشرعية الأخص .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله : « إن الرجوع إلى هذه البدائه من قرب ومن بعد »[21] ؛ فأبومحمد يبني آراءه في كل مسألة على العقل، والعقل عنده أول مصادر المعرفة ، ولقد نفى ظنون العقل من الشرع كالقياس؛ فظنوا أنه عدو العقل، ولم يعلموا أن العقل منطقه، ولكنه أخطأ تطبيقاً لا تأصيلاً في صفات الله سبحانه خاصة ، وفي كل ما خالف فيه الظاهر.

قال **أبوعبدالرحمن** : وردت نصوص شرعية كثيرة في الفطرة ، وجعلتُ تحقيقها ضمن تفسيري لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ

(٢١) الفِصَل ١/ ٧ .

شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف/ ١٧٢-١٧٤] .. وثمة أحاديث عن النبي ﷺ فُسِّرت بها هذه الآية، وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة إبراهيم/ ١٠] ؛ فقوله تعالى : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ يدل على فطرية هذه الحقيقة .. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«يقول الله إني خلقتُ عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم »** وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [سورة يونس/ ١٢] .

وقال ﷺ: **« عشرٌ من الفطرة ... »** ؛ فهذه النصوص منها ما هو في وجود الفطرة، ومنها ما هو تفسير للفطرة ، وكلها نصوص قاطعة على أن الناس مفطورون على فطرةٍ أوليَّةٍ استقام عليها من استقام، وانحرف عنها من انحرف ، ولكن ما ليس قطعياً في هذه النصوص هو مفهوم الفطرة لا وجودها ، فقد اختلفتْ أنظار العلماء .. إلا أن المحقَّق أن هناك فطرةَ وعيٍ تلقائية يتجه فيه المضطر إلى ربه ، وفطرةَ عقل يقوم عليها سلوكُه الدنيوي[22] وإيمانُه العلمي بشرع ربه خبراً وأمراً ونهياً بعضه من

(٢٢) قال **أبوعبدالرحمن** : فطرة العقل معطوفة على فطرة الوعي فيما سبق من سياق.. و « إيمانه العلمي » معطوفة على « سلوكه الدنيوي » ، والمعطوف والمعطوف عليه تفريع لفطرة العقل ، وليسا معطوفين عليها ؛ فلا تضع

عالم الغيب وبعضه من عالم الشهادة ؛ فمن معاني الفطرة أنها مقتضى المعارف الأولية البديهية ؛ فليس معنى الفطرة أن الإنسان يولد عارفاً بأنَّ الدِّين حق وأن الله حقٌّ ، وإلا لَخالَفْنا مدلولَ قولِهِ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النحل / ٧٨] .. ولكنه حينما يستعمل عقله يجد أن لديه مبادئ أولية هي ما تسمى بالأفكار الفطرية أو أوائل العقولِ أو البديهيات .. قال الإمام أبومحمد ابن حزم : « لا ذكر للطفل حين ولادته ، ولا تمييز إلا ما لسائر الحيوان من الحس والحركة الإرادية كمدِّ رجليه وقبضهما ، وتألُّمِه من البرد أو الجوع أو الضرب ، ومعرفته الإلهامية كأخذه الثدي وتمييزه بطبعه (أي فطرته) من سائر الأعضاء.. يفهمه دون سائر أعضائه كما تأخذ الشجر رطوبات الأرض والماء لبقاء نضارتها .. ثم منها ما أدركه بحواسه الخمس كعلمه أن لكل مفعول فاعلاً ، وأن الجزء أقل من الكل ، وأنه لا يجتمع ضدان »[٢٣] .. وحقيقة هذه البديهيات :

أ- أنه لا يدري أحدٌ كيف وقع العلم بها .

الشولة (،) بعد « سلوكه الدنيوي » ؛ لرفع الوهم بأن الجملتين الفرعيَّتين معطوفتان على «فطرة العقل» .. وإن وضعتها فلابد من النقطتين الرأسيتين بعد «يقوم عليها»، والأفضل ما اخترتُه من ترك الشولة والنقطتين إلا لضرورة بيانٍ؛ لأن علامات الترقيم لا تُستقصى إلا عند اللبس .. مع الحرص على تشكيل سلوكه وإيمانه بالضم؛ فيرتفع الوهم بأن « إيمانُه » معطوفة على « فطرةَ وعيٍ » .

(٢٣) الفصل ١/ ٥-٦ .

ب- أنه لا يشك ذو تمييز صحيح في أنها صحيحة لا امتراء[٢٤] فيها.

ج- أنه لا يُطلب عليها دليل ؛ لأن الاستدلال على الشيء لا يكون إلا في زمان .. ولا بد ضرورة أن يُعلم ذلك بأول العقل؛ لأنه قد عَلِمَ بضرورة العقل أنه لا يكون شيء مما في العالم إلا في وقت .. وليس بين أوقات تمييز النفس في هذا العالم وبين إدراكها لكل ما ذكر مهلة ألبتة لا دقيقة ولا جليلة[٢٥] ؛ فوجود الله بصفات الكمال فطري لا لأنه اضطراري غير اكتسابي لا يعلم كيف وجد ، وإنما هو فطري لأنه حصل بدليل فطري بديهي .. ووجود الله ثابت عقلاً بدليل العلية ؛ فوجود الله معلوم بالفطرة؛ لأن الصبي إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني ؟.. وما ذاك إلا شهادة فطرية بأن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل

(٢٤) رأى بعضُ الفضلاء إبدالها بكلمة « مراء » .. قال **أبوعبدالرحمن** : الامتراء صحيحة، وفعلها امترى ، والمعنى الشك ، وهذا ما أريدُه .. وأما المراء فيعني الجدال ، ولا أريد هذا المعنى؛ لأن الجدال يحصل فيما لا شك فيه .. وقبلي الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله في الفصل ١/ ١٦ قال : « كلها صحاح لا امتراء فيها » .

(٢٥) انظر الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل ـ تحقيق أحمد شمس الدين / نشر عباس الباز بمكة المكرمة/ دار الكتب العلمية طبعتهم الأولى عام ١٤١٦هـ/ ١/ ١٦-١٧ـ ، والتقريب لحد المنطق ـ ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي/ بتحقيق الدكتور إحسان عباس/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر / الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م – ٤/ ٢٨٦ ـ، والإحكام في أصول الأحكام / دار الكتب العلمية ببيروت / ١/ ١٧ .

فعلها ، ولأجل مختار أدخلها في الوجود ؛ فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل : فبأن تشهد بافتقار جميع[٢٦] حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى[٢٧] .

ووجود الله ثابت عقلاً من فكرة الكمال المطلق ، واللاتناهي؛ فوجود الله فطري ؛ لأن العقل في فطرته لا يقف عند مرتبة قاصرة من مراتب الكمال .. إن معرفة الله فطرية لأنها ثابتة بالبديهيات، وهذه تسمى بالمبادئ الفطرية في عرف العقلانية[٢٨] الحديثة التي تزعَّمها

---

(٢٦) قال **أبوعبدالرحمن** : لك أن تضع «مع قلته وحقارته» بين شرطتين؛ لأنهما علامة الاستدراك وتلغي النقطتين ههنا، ولك أن تهمل الشرطتين وتبقي النقطتين للإشعار بالجواب بعد طول الفاصل.. والأمر الأخير أظهر في الإيضاح.

(٢٧) قال أبومحمد في التقريب ـ ضمن رسائل ابن حزم ٤/ ٢٨٦ ـ عن علم الإنسان بالمبادئ الفطرية : « وإنما هو فعل الله عز وجل في النفس » .

(٢٨) قال **أبوعبدالرحمن** : العقلانية مذهب المؤمنين بالمبادئ الفطرية العقلية ـ وهم الجمهور ـ : نسبة إلى جماعة؛ لهذا قالوا : « عقلاني » .. كما قالوا : نفساني، وشخصاني .. وميَّزوا ذلك عن عقلي (نسبة إلى العقل الإنساني المشترك)؛ لأن العقلاني قد لا يصادف حكم العقل.. وجرى العرب على هذه الترجمة الخاطئة.. والصواب عقليون وعقلي سواء أصادفوا حكم العقل أم لم يصادفوه ؛ فهم منتسبون إلى العقل في الجملة؛ فلزمتْ نسبتهم إليه؛ فلا ريب أن النسبة إلى العقل هي عقلي.. أما ما شاع من قولهم عقلاني فهو للدلالة على المذهب (العقلانية) التي هي نسبة إلى عدة عقول .. وقال شيخنا أحمد يوسف القادري : « العباقرة من المترجمين أتقنوا لغة الخواجات، وجهلوا لغتهم، وقاسوا «عقلاني»، على «روحاني» كما قيل!! » .

ديكارت وسبينوزا وليبنز ومالبرانش[٢٩] .

---

(٢٩) الأخيرون هم أتباع ديكارت في نظرية المعرفة، وعندهم فروق وإضافات، ويكفي أن أذكر سبينوزا ذلك اليهودي المروِّج للإلحاد بخبثٍ متستراً على يهوديته التي تستبيح كل وسيلة غير شريفة لأغراضهم غير الشريفة؛ فهو يُقَزِّمُ العقلَ الذي جلَّى ديكارت دورَهُ ؛ فيجعله احتمالياً إلا في مثل : إنِ الكل أكبر من الجزء، وإن العدد (٦) هو المحذوف في نسبة ٢ : ٤ = ٣ [أي المجهول في المعادلة الجبرية] .. وانظر قصة الفلسفة لولْ ديورانت ص٢٢٢ ـ مكتبة المعارف ببيروت / الطبعة السادسة عام ١٤٠٨هـ ترجمة فتح الله محمد المشعشع ـ حيث جرَّد سبينوزا العقل من ملكاته ، وجعله بمقابل الإرادة الحرة !! .. وبهذا كانت ميوعته في فلسفة الأخلاق؛ إذ لم يجعل إيجابيات العقل وإيمانه العلمي حكماً في السلوك الذي هو موضوع الأخلاق .. وكتاب ليبنز «المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي» مطبوع باللغة العربية بترجمة الدكتور عبدالغفار مكاوي/ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٨م، وهكذا كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا بترجمة الدكتور حسن حنفي/ الطبعة الثالثة/ مكتبة الأنجلوالمصرية، وطُبع له علم الأخلاق بترجمة جلال الدين سويد / دار الجنوب للنشر بتونس .. ووعدت الدار بطبع كتابه «رسالة في إصلاح العقل» بترجمة المترجم نفسه ، وأما مالبرانش فلا أعلم له كتاباً مُعَرَّبا ، والفروق بين مذاهبهم مفصَّلة في كتب تاريخ الفلسفة الحديثة ، وكتب دراستها ، وكتب نظرية المعرفة ، وكتب المصطلحات الفلسفية ، وفيما كتب عن ديكارت والمدرسة العقلية مثل كتاب « ديكارت » أو الفلسفة العقلية » للدكتورة راوية عبدالمنعم عباس / دار المعرفة الجامعية عام ١٩٩٦م .

والأفكار الفطرية كما يرى ديكارت غريزة ليست مستفادة من الحواس ، وإنما مرجعها إلى قوة الفكر ؛ فهي أحوالٌ ذهنية موجودة في النفس قبل أي تجربة[٣٠] ، وهي صادقة في نتائجها ؛ لأنها متميزة وواضحة ، ولأنها مبنية على صدوقية الله كما يقول ديكارت[٣١] .

(٣٠) المصدر الحقيقي التجريب، والتجربة تعمل عمله ؛ فسموها مصدراً .. والتجرِبة العاملة عمل المصدر بكسر الراء، ويُخطِّؤون من ضَمِّها .. وإذا لم تُحقِّق التجربة بضم الراء معنى بمدلول صيغة «تفعُلة» بضم العين؛ فالضم خطأ .

(٣١) يعني صدق الله ، وأن برهان الكمال دليل على صدقه؛ فيجب الاستناد على ما جاء من عنده .. جاء ذلك في إحدى الترجمات للتأملات ، وقال في كتاب التأملات (في الفلسفة الأولى) ترجمة الدكتور عثمان أمين / مكتبة القاهرة عام ١٩٦٥م / الطبعة الثالثة / دار الحمامي للطباعة ص٩٩ عن الإيمان بوجود الله في التأمل الثالث ص٩٩ « فهناك إذن إله ، وهذا الإله لا يمكن أن يكون مُضِلاً ؛ لأنه كامل » ، وقال في كتاب مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث في الحقيقة في العلوم بترجمة الدكتور جميل صليبا / الطبعة الثانية عام ١٩٧٠م/ اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ببيروت ص١٤٨: «الأشياء التي نتصورها تصوراً بالغ الوضوح والتميز صحيحة كلها.. لم أَتَيَقَّنْهُ هـذا اليقين إلا لأن الله كائن أو موجود، وأنه موجودكامل.. إلخ » .. وتُرْجِمَ من كتُب ديكارت « انفعالات النفس » بترجمة جورج ريناتي / دار المنتخب العربي ببيروت / الطبعة الأولى عام ١٤١٣هـ، وكتاب « العالم » ، أو كتاب «النور» بترجمة أميل خوري، دار المنتخب العربي عام ١٤١٩هـ/ الطبعة الأولى .

والبديهة هي أول معارف العقل، والبديهة من كل شيء أوله، وفي صفته ﷺ: من رآه بديهة هابه .. أي مفاجأة، وقال الطرماح بن حكيم :

وأجْوِبةٌ كالزَّاعِبِيَّة وَخْزُهَـــا   يُبَادِهُهَا شَيْخُ العِرَاقَيْن أمْرَدَا[٣٢]

وبهذا تعرف أن مادة الباء والدال والهاء أصل في أول كل شيء ، ويدخل في ذلك المفاجآت وما يقوله الإنسان من غير رَوِيَّة .. والأفكار التي يسمونها المبادئ الفطرية هي أول معارف العقل ؛ ولذا سميت بديهية ، ولها عند العقلانيين هذه الأحكام :

١- أنها تلقائية لَدُنِيَّة غير مكتسبة .

٢- أنه لا يدري أحدٌ كيف وقع العلم بها .

٣- أنها سابقة خبرة النفس وتجاربها ؛ ولذا ففي معارف العقل ما يستقل عن خبرة الحس .

٤- أن ما ثبت بها يقيني قطعي بديهي، ولا يشك فيها إلا متحامق .

(٣٢) ومثله قول الآخر :

وما قُطِعَ الرجَـاءُ بمثلِ يأسٍ   تُبادِهُه القلوبُ على اغترارِ

والمبادهة المفاجأة من غير روية .. وقال أستاذنا الدكتور محمد خير البقاعي: «البيت في الصحاح واللسان (زعب) ، واللسان (بده) كالراعبية [يعني بالراء المهملة] وهو تصحيف .. والزَّاعِبية : الرماح ، منسوبة إلى زاعب ، رجل أو بلد .. ويبادهها : أي يفاجئ بها .. انظر ديوان الطرمَّاح .. عني بتحقيقه الدكتور عزت حسن/ دار الشرق العربي / ببيروت/ ط٢، ١٤٢٢هـ/ ١٩٩٤م/ ص٣١٠ ، وهو بيت مفرد .. يقول : إن شيخ العراقَين يفاجئ خصومه بأجوبة كطعنة الرمح في يد فارس في ريعان شبابه » .

وتستند هذه المبادئ في حُجِّيتها إلى أنه مجمع عليها ، وأنها تُوقِع علماً ضرورياً ، وأنه لا يستقيم منهج عقلي مع إنكارها ألبتة، وأنه يثبت بها من الماورائيات ما لم يخضع لمختبر التجربة الحسية بعد ، وهي بعد هذا كله قوانين تعصم الذهن من الخطإ.. والمعرفة تستحيل إذا وُكِلَت إلى الإدراك الحسي وحده ، بل لابد من حضور العقل بـمَلَكاته في التصور والتمييز والحفظ والتذكر والتخيل والتجريد ؛ لأن الإدراك الحسي والتجربة إنما يخبراننا بما يتعلَّق بحالة واحدة من أحوال الشيء ، ولا يستطيعان أن يتناولا كل الأحوال ؛ ولأن ما يظهر للعقل بواسطة[٣٣] الحواس إنما هو مظهر الأشياء الخارجي بالنسبة للإدراك الحسي البشري المحدود .. وقد يكون الإدراك زمنياً وقتياً ؛ لأن بعض الأشياء ـ ولا سيما الأحياء ـ في صيرورة وتغيُّرٍ دائمين سريعين .

قال **أبوعبدالرحمن** : وعلى ضوء هذه المبادئ فإن العلم العقلي يميل إلى العموم والضرورة ؛ فهما ظاهرتان علميتان .. وبالتأمل العقلي الخالص أثبت العقلانيون حقائق ماورائية نازع فيها التجريبيون وسموها خرافة الميتافيزيقا .. إن هذه المبادئ مكنوزة في عقولنا لا تستند إلى حس ولا إلى تجربة ، ولكنها ترجع إلى مبدأين رئيسيين[٣٤] :

(٣٣) الواسطة والوساطة كلاهما صحيحان في الدلالة على نوع علاقة بين شيئين ، وقد بيَّنتُ ذلك في مباحثي اللغوية .

(٣٤) رئيسي وصف للمبدإ بياء النسب ؛ فيكون واحداً من «رئيسين» جمع «رئيس» .. ورئيس ـ بدون ياء النسب ـ وصف مباشرة .. ولا معنى لمن خطَّأ رئيسياً ، وإنما الرئيس أبلغ إن أردت واحديته في هذا المعنى .

أولهما : التناقض ، ومبدأ التناوب .

وثانيهما : مبدأ السببية، ومنه مبدأ العلية الكافية .

قال **أبوعبدالرحمن** : ومآل هذين المبدأين إلى قانون الهُويَّة .. ومن الأفكار الفطرية التي تقوم على اللزوم العقلي فكرة الكامل اللامتناهي، وهي تأمُّلٌ عقليٌّ خالص، وليست انطباعاً من محسوس كامل لا متناه!.. وقد حصر أرسطو هذه المبادئ في ثلاثة قوانين ، وهي :

١- قانون الذاتية ، وهو : أن كل شيء هو نفسه .. ويسمى قانون الهوية ، أو قانون الهُوَ هُوَ .

٢- قانون عدم الجمع بين النقيضين في شيءٍ واحدٍ في آنٍ واحدٍ ، وهو قانون الوسط الممنوع .

٣- قانون عدم ارتفاع النقيضين ، وهو أن الشيء : إما أن يكون، وإما ألاَّ[٣٥] يكون ، ويسمى بمبدأ الثالث المرفوع .. وأخص منه مبدأ التضاد ؛ لأن الضدين لا يجتمعان ، ولكنهما يرتفعان .

وبتأمُّلٍ عقليٍّ خالص تحكمه هذه القوانين نـتَيَقَّنُ معارف لم تستند إلى خبرتنا الشخصية .. وقد مرت عصور يُعَدُّ فيها منكرها من البُلْه، وممن ليست لهم عقول ، ولم يُؤثّر على هذا الاعتقاد حدوثُ الخروج

(٣٥) توصل (أنْ) المصدرية الناصبة للفعل بـ(لا) النافية ، وتُحذف نونها للإدغام سواء تقدمت عليها لام التعليل أم لم تتقدم عليها نحو قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [سورة الأعراف/ ١٢] ؛ وسبب الحذف شدَّةُ اتصالها بالفعل بحيث لا يجوز أن يُفصل بينها وبينه .. فإن كانت (أنْ) غير ناصبة [مخففة من الثقيلة أو مفسِّرة أو زائدة] فُصلت عما قبلها [د. جمران] .

على هذه القوانين في علم الكلام كمسألة الأحوال عند الأشعرية ؛ لأنها مخالفات لم تقم على العلم ، بل الإجماع على أنها من الحمق الذي لا خفاء به ، ولكن الحملة العلمية على هذه المبادئ جاءت من قبل الفلاسفة التجريبيين الإنجليز، واشتطَّ النزاع الفلسفي في هذه المسائل:

١- عدم التسليم بأن هذه المبادئ فطرية بل هي مكتسبة .

٢- عدم التسليم بأن هناك عقلاً خالصاً مجرداً لا يستمدُّ معارفه من الحس والتجربة .

٣- ما يسميه العقلانيون بالمبادئ الفطرية أو قوانينَ الفكر إنما هو نتيجة خبرة وتجربة ، ولكنها عُمِّمَتْ في كل ما لا يحس ؛ ولهذا فاليقين في المعرفة الحسية البحتة .. ومن هنا جاءت فكرة خرافة الميتافيزيقا .

ومن الغباء المحض الذي وقع فيه الملحدون غفلة أو تغافلاً فرض التلازم بين العلم بوجود الشيء ـــ ومن لوازم الوجود تَحقُّقُ الصفات؛ إذ لا يُعقل وجودٌ مجرد ـــ وبين العلم بكيفيته ومقداره .. وفطرة العقل والخبرة الحسية العلمية ترفض هذا التلازم ، وتُقِرُّ بأن العلم بكيفية الشيء علمٌ بصفة الموجود بوجوده وكيفيته ، وأن الجهل بالكيفية لا يقتضي الجهل بالوجود ، بل قد يحصل العلم بوجود الشيء مُكيَّفاً .. وما غُيِّبت عنا كيفيته أو مقداره فلا نعقلُ له وجوداً إلا بالوصف أو مقدار ما يدل عليه أثره من وصف ؛ فتكون الكيفية والمقدار واقعاً مغيَّباً.. وقد نعلم الكيفية بالحس ؛ فتكون مؤمنين بالواقع المشهود .. والعلم بالكيفية ليس هو المميز للحقيقة من الخرافة ؛ لأن الحقيقة قد تكون في قبضة الحس البشري المحدود ، وقد تكون مغيَّبة عنه .. وإنما

الإيمان بالخرافة ينحصر في الإيمان بما عُلم امتناع وجوده ؛ وكان هذا خرافة لأنه إلغاء للعلم ، وتعطيل للعقل .. وإنكار الحقيقة جهل ليس بأقل خطراً من الإيمان بالخرافة ، ويكون إنكار الحقيقة بإحالة ما عُلِم وجوده ، وبقطعِ أحد الاحتمالين عما علم إمكانه ؛ فصاحب الخرافة مُدَّعٍ لما ليس في الواقع ، والحسباني منكر لما هو في الواقع ، وكلاهما جهلٌ وعناد .. ويكون صاحب الخرافة جاهلاً إذا لم يعلم بالمانع ، ويكون معانداً إذا تشبَّث بما يعلم امتناعه .. ويكون الملحد ـــ وهو من تجاوز الحسبانية إلى الجزم بالإنكار ـــ جاهلاً إذا لم يعلم بوجود ما أنكره أو إمكانه ، ويكون معانداً إذا عطَّل العلم وأسقط مقتضاه .

وما علمنا وجوده بالبرهان ، ولم نعاين كيفيته ومقداره : فعلمنا به علم بصفاته أو بعضها بخبرِ معصومٍ ، أو مشاهدةِ آثاره .. نعلم صفاته بمفهوم لغوي ، ولا نعلم كيفية الصفة ؛ لأنه لا يوجد في حسنا البشري كيفية مماثلة ؛ فيكون العلم حينئذٍ علماً بالوجود وعلماً بوجود صفات الموجود دون علم بكيفيتها .. وكل ما ذكرته قائم على ثلاثة أسباب :

أولها : من واقع تحليلنا لمعرفتنا البشرية ؛ فثمة أشياء عرفنا وجودها قبل أن نعرف كيفيتها ، وثمَّة أشياء يُقِرُّ العلمُ الحديث بمعرفة وجودها ولا يزال يجهل كيفيتها .

وثانيها : أن ما يعلمه الإنسان بحسِّه بين مَدٍّ وجَزْرٍ خلال مرحلة العمر منذ رحمة المهد إلى وحشة اللحد ؛ فهو يعلم في سِنِّ اليفاع ما لا يعلمه في سن الطفولة ، ويعلم بالتعلم ما لا يعلمه في عهد الأمية ، ويعلم كثيراً ويموت وهو لا يعلم أشياء أكثر ؛ وإذن فالوجود ليس محصوراً في الحس البشري ، وإنما في وسع الحس البشري معرفة ظواهر بعض الموجودات .

وثالثها : أن الحس فيما شاهده عَلِمَ بأن الموجودات مختلفة ، وربما لم يجد الحسُّ المثالَ الحسِّيَّ المشاهدَ المقاربَ في صفاته لأنموذجٍ عُلم وجودُه ولم تُعلم كيفيته إلا بالاستنباط من وَصف الموجود وأثره ؛ وإذن فما غُيِّبت كيفيتُه عن الحسِّ البشري ليس من الشرط أن يكون له في الموجود المحسوس ما يقارب صفته ؛ ولهذا سَهُل على المؤمن أن يتصور في الجنة ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعت ولا خَطَر بقلب بشر.. وللكلام عن البديهيات مجال آخر في كتابي « مقياس المقاييس » في القسم الخاص بالمصطلحات العلمية .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنَّا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، والحمد لله عوداً وبدءاً .

وكتبه لكم :

أبوعبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

تم الفراغ منه فجر يوم الجمعة الموافق ٦/ ١٢/ ١٤٢٣هـ بجدة على البحر بالبديعة ، ثم تمت المعاودة في نفس المكان ضحى يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ١٢/ ١٤٢٣هـ ، ثم تمت المعاودة عصر يوم الخميس الموافق ٢٩/ ١٢/ ١٤٢٣هـ بالرياض، ثم تمت المعاودة منتصف الليلة التي صبيحتها يوم الأربعاء الموافق ٢٣/ ١/ ١٤٢٤هـ ، ثم تمت المعاودة النهائية منتصف الليلة التي صبيحتها يوم السبت الموافق ٤/ ٢/ ١٤٢٤هـ بالرياض.. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين ؛ وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

[قـد حصَّـلتم عـلى الصَّـغار قديـماً

والأمـــاني بضـــائع الســـخفاء

الفصل ١/ ١٦٥

دار الكتب العلمية .]

[المعرفة بالحقائق الضرورية والأبدية هي التي تميزنا عن الحيوانات الخالصة، وبها نحصل على العقل ونتزود بالعلوم؛ وذلك حين ترفعنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله[٣٦] ، وهذا هو ما يسمى فينا بالنفس العاقلة أو العقل[٣٧].. تقوم معرفتنا العقلية على مبدأين كبيرين : مبدأ عدم التناقض ، وبفضله نحكم على كل ما ينطوي على تناقض ، وبالصدق

(٣٦) الحقائق الضرورية والأبدية هي المبادئ الأولى للمعرفة العقلية، وهي مفطورة فينا، بل تقوم عليها طبيعتنا الإنسانية ، كما تقوم عليها طبيعة العالم الذي نتمثله بحكم ماهيتنا ؛ ولهذا كان [قال شيخنا أحمد القادري : « كان مجردة من التاء جائزة في هذا الموضع ؛ لأن المعرفة مؤنث مجازي.. قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [سورة الأنفال / ٣٥] .. ويجوز « كانت »] المعرفة بهذه الحقائق مرادفة للمعرفة بأنفسنا، وبالله الذي هو العلة الغائية الأخيرة لجميع الكائنات . راجع المقالات الجديدة الفصلين الأول والرابع اللذين يشير فيهما إلى أن هذه الحقائق فطرية فينا ويستشهد بمحاورة « مينو » المعروفة لأفلاطون؛ حيث يثبت سقراط أن المعرفة تذكُّر ، ويستخرج بأسئلته وحدها المعرفة الرياضية من نفس العبد الصغير « مينو » .. راجع كذلك مبادئ الطبيعة والفضل الإلهي/ الفقرة الخامسة [المترجم عبدالغفار مكاوي] .

(٣٧) الكلمة الأصلية هي esprit وقد ترجمها المترجم الألماني بالروح Geist [التي تعني جماع القوى العقلية] والإنجليزي بالعقل أو الذهن Mind ورأيت أن العقل هنا أقرب إلى السياق [مكاوي].

على ما يضاد الكذب أو يناقضه .. كما تقوم على مبدأ السبب الكافي، وبه نسلم بأنه لا يمكن التثبت من صدق واقعة أو وجودها ولا التثبت من صحة عبارة بغير أن يكون ثمة سبب كاف يجعلها على هذا النحو دون غيره(٣٨) وإن تعذر علينا في أغلب الأحوال أن نتوصل إلى معرفة هذه الأسباب .

جوتفريد فيلهلم ليبنتز
المونادولوجيا والمبادئ العقلية والفضل الإلهي
ص١٤١-١٤٢و١٤٣]

(٣٨) كان ليبنز في كتاباته المبكرة يسمي هذا المبدأ باسم مبدأ التحديد أو التعيين، ويقصد به المبدأ الذي يحدد وجود هذا الشيء أو ذاك من بين عدد من الاحتمالات أو الإمكانات التي تنطوي على تناقض وهو يستخدم أحياناً « مبدأ التلاؤم » أو التجانس كمرادف لمبدأ السبب الكافي .. ومعنى هذا أنه يشير ضمنا إلى أن السبب الكافي لشيء ما يوجد دائماً في علاقاته بغيره من الأشياء وفي مكانه من النظام العام ، ومن الواضح أن مبدأ السبب الكافي شبيه عنده بمبدأ السبب الغائي أو العلة الغائية، ولعله أن يكون قد تأثر بالرياضيات في استخدام كلمة «الكافي» [مكاوي] .. قال **أبوعبدالرحمن** : كاف التشبيه في «كمرادف» لحن، والكافي ما ينتهي به التعليل كالكامل المطلق علة كافية لتعليل مصدر أي كمال .

[إلــه محمــد حقــاً إلهــي ... وديــني ديــنُه غــير انــتحالِ
إلــه العــالمين وكــلِّ أرضٍ ... وربُّ الراسياتِ من الجبالِ
بــناها وابتــنى ســبعاً شــداداً ... بـلا عَمَـدٍ يُـرَيْنَ ولا رجالِ
وســـوَّاها وزيَّـــنها بـــنورٍ ... من الشَّمس المضيئة والهلالِ
ومـن شُـهُب تـلألأ في دُجاهـا ... مـراميها أشَـدُّ مـن النضـالِ
وأنشـا المـزن تدلُـجُ بالـروايا ... خـلالَ الرَّعدِ مرسلة الغوالِ
ليسقي الحرثَ والأنعـام منها ... سـجال المـاء حالاً بعد حالِ
وشق الأرض فانبجست عيوناً ... وأنهـاراً مـن العَذبِ الزُّلالِ
وبـارك في نواحيهـا وزكَّـى ... بهـا ما كان من حَرْثٍ ومالِ
وأجـرى الفـلكَ في تيَّار مـوجٍ ... تفيـض عـلى المداليجِ الثقالِ

قال أبوعبدالرحمن : هذا مما نسب إلى أُميَّة بن أبي الصلت بديوانه ص١٠٠ - ١٠١ .]